ديناميةالفضاء الروائي

دراسةتحليليةفيرواية﴿زقاقالمدق﴾لنجيبمحفوظ

دكتور

كمال سعد محمد خليفة

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية البنات الإسلامية
جامعة الأزهر بأسيوط

دينامية الفضاء الروائي

دراسة تحليلية في رواية ﴿ زقاق المدق﴾ لنجيب محفوظ.

كمال سعد محمد خليفة

القسم: الأدب والنقد، كلية البنات الإسلامية، جامعة الأزهر بأسيوط، مصر.

(البريد الإلكتروني): kamalkhglifah.٧٨@azhar.edu.eg

ملخص:

تتماس الدراسة عبر توظيف المنهج التحليلي مع الرؤية الإبداعية، التي تشي بأهمية المكان وسطوة حضوره في تشكيل فضاء الرواية، وتبحث عن أهميته عند اختفاء البطولة البشرية، وتجلي المكان الذي تتشكل عبر تفاصيله أنماط بشرية متعددة، تتحرك في كل اتجاه. فنجيب محفوظ مبدع الرواية العربية أحد أهم من وظفوا الفضاء (الأمكنة) في إبداعهم الروائي سيما في روايته زقاق المدق، التي يمثل فضاؤها البطولة المطلقة؛ لأن المكانية تكسب العمل الروائي الخصوصية الإبداعية. إذ يلد المكان السر قبل أن تلده الأحداث، بشكل أكثر عمقا وأكبر أثرا في عالم الرواية. وبهذا الحضور الأدبي ينجح المكان في نسج العلاقات الإنسانية والقيم الحضارية والطاقات الفنية، وتتبلور الرؤية الإبداعية ودلالاتها الجمالية في تشكيل الشخصيات ونظيراتها، التي تصنع عبر علائقها وتفاعلاتها الصراع في الفضاء الروائي. وعبر بطولة الفضاء الروائي تتشكل آليات الفن وطاقاته الجمالية، وتنشأ عن أمكنته المتعددة الأنماطٌ البشرية التي تصنع تكوينها البانورامي، وتكشف عن البعد الإنساني والحضاري للإنسان نتاج هذا الزقاق في عالم الرواية.

الكلمات المفتاحية : دينامية الفضاء، الروائي، رواية ، زقاق ، المدق، نجيب محفوظ.

Dynamic Narrative Space: An Analytical Study in the Novel of The Alley of The Medq by Naguib Mahfouz.

Kamal Saad Mohammed Khalifa
Section: Literature and Criticism, Islamic Girls College, Al-Azhar University in Assiut, Egypt.
E-mail: kamalkhglifah.٧٨@azhar.edu.eg

Abstract:
The study is in keeping with the analytical approach with the creative vision, which suggests the importance of the place and the medium of its presence in the formation of the space of the novel, and looks for its importance when the disappearance of human heroism, and the manifestation of the place that is formed through its details multiple human patterns, moving in each direction . Naguib Mahfouz, creator of the Arabic novel, is one of the most important employees of space (places) in their novel creation, especially in his novel Alley al-Madiq, whose space represents the absolute heroism; Because spatiality earns fiction creative privacy. The place generates the secret before the events give birth to it, in a deeper and deeper way in the world of the novel. With this literary presence, the place succeeds in spun human relations, cultural values and artistic energies, and the creative vision and its aesthetic connotations are crystallized in the formation of the characters and their counterparts, which are made through their relationand interactions conflict in the narrative space. Through the heroism of the narrative space, the mechanisms of art and its aesthetic energies are formed, and arise from its multi-pattern human places that make its panoramic composition, and reveal the human and civilizational dimension of man, the product of this alley in the world of the novel .

Keywords: Dynamic Space, Novelist, Novel, Alley, Medq, Naguib Mahfouz.

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ؛ سيدنا محمد النبي الأمي الكريم ، وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ،

فكثيرة هي المقاربات النقدية التي تناولت دراسة المكان في روايات المبدعين العرب[١]، وعلى رأسهم نجيب محفوظ ، بوصف المكان جزءا من مكونات الرواية، وآلية ينهض عليها البناء الروائي ، لكنني في قراءاتي المتعددة لرواية (زقاق المدق)[٢] ، وجدت للزقاق بأمكنته سطوةً وحضورًا في هذه الرواية . ما دفعني للبحث عن دلالة هذا الحضور وفاعليته في تشكيل الفضاء الروائي ، فقمت برصد حركة هذه الأمكنة وتتبعت سيرورتها وتأثيرها في البنيات الأخرى ، التي يتشكل في آفاقها عالم الزقاق ؛ لأن نجيب محفوظ في هذه الرواية كان" يكتب بالمكان وليس عن المكان[٣] "!! وأدواته كانت

---

[١]) أفصح الدكتور مصطفى الضبع في مقدمة الطبعة الثانية لدراسته استراتيجية المكان عن عدد العناوين التي يشكل المكان محور اهتمامها ما يقارب الستين ومائة دراسة . راجع ص :٧ من كتابه .

[٢]) هذه الرواية صورت فيلما سينمائيا من إخراج الأستاذ حسن الإمام ، إلا أن المعالجة الدرامية للفيلم تختلف تماما عن المعالجة الفنية للرواية .

[٣]) استراتيجية المكان : دراسة في جماليات المكان في السرد العربي ص: ٧ – بتصرف – د. مصطفى الضبع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ثانية – ٢٠١٨م – القاهرة .

شخصيات الزقاق ، بوصفها النمط البشري الذي يدفع حركة الدراما ويطورها ، وعبرها يتشكل الصراع في العمل الأدبي.

هذه الشخصيات بحضورها وثرائها الفني ودلالاتها الجمالية تعاملت معها الدراسة على أنها انعكاس لحركة الزقاق ، وأداة الأديب لتشكيل بانوراما فضائه ، فكان لحيويته وتفاعلاته الدور الأكبر في إنتاج هذه الشخصيات ، فكل مكان في هذا الفضاء الروائي كان يشكل هوية شخوصه ذات الخصوصية الإنسانية والحضارية المختلفة عن منتج الأمكنة الأخرى، التي يتشكل منها جميعا في النهاية عالم الزقاق ، بوصفه المسرح الذي تتحرك عبره الحياة وتمتد في عالم الرواية .

لم يتناول نجيب محفوظ الزقاق عبر شريحة اجتماعية ما في المجتمع القاهري / المصري ، لكنه في تصوره كان الزقاق مسرحا تلعب على خشبته كل طوائف الشعب المصري ؛ هو دنيا تتحرك في عالمها الفسيح كل طوائف المجتمع ، وتتقاطع في أفقه أشكال الناس ، وعبر طموحاتهم وآمالهم تتشكل الأحلام لكل البشر بمختلف نوعياتهم . فالزقاق يضم عم كامل بائع البسبوسة ، والمعلم كرشة صاحب القهوة ، وشاعر الربابة ، والحلاق عباس الحلو ، وصديقه الشاب الانتهازي المتطلع حسين كرشة ، إلى جوار السيد سليم علوان ؛ ثري الزقاق وصاحب الوكالة والبنايات الشاهقة خارج الزقاق ، ويضم جِعدة الفرَّان ، وزيطة (صانع العاهات) لممتهني الشحاذة ، وصديقه الدكتور(بوشي) طبيب الأسنان الذي اكتسب لقبه من مرضاه وليس من كليات الطب ، والسيد رضوان الحسيني؛ ضمير الزقاق ، المتصوف الزاهد ، الذي رزأه الله في أولاده فلم يعش له أحد من ذريته!! . إلى جوار الطارئ على الزقاق فرج

القواد !!. ومن النساء : تجد الدلالة الخاطبة أم حميدة بالتبني ، والعجوز المتصابية سنية قراعة صاحبة البيت الذي يسكنه أكثر من في الزقاق، وحسنية صاحبة الفرَّان؛ زوج جعدة الفرَّان ، وزوج المعلم كرشة ، التي لم تلاحق على زوجها في نزواته وشذوذه في الزقاق وخارجه !! إلى جوار الشابة فائقة الجمال والتمرد ، (حميدة) بنت الزقاق ، وأكثر الشخصيات حضورا وتأثيرا في حركة الزقاق، وتصاعد صراعه ، ودرامية الحياة فيه . فالرواية حاولت توظيف "المكان بوصفه تقنية لا بوصفه موضوعا ، حيث الروائي لا يكتب عن المكان بقدر ما يكتب بالمكان ."[١]

هذا المجتمع – الزقاق– الذي صنعه نجيب محفوظ على عينه، كان يرمز إلى مصر قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها .. تفجرت عبر دروبه وساحاته كل هذه الأنماط البشرية المختلفة الطباع والرؤى والأفكار ، وشكلت فيما بينها مشهدا بانوراميا عبر التشكيل الدائري لحركة الزقاق ، إذا ما انفتحت دائرته انطلق منها من انطلق ، وبقي فيها من بقي ! كل من تفلتوا من فرجات هذه الدائرة كان مصيرهم الفشل أو السقوط أو الموت قتلا ؛ سقطوا جميعا في التلاشي ، وانهارت أحلامهم ، وعجزوا عن تحقيق أيٍّ من الآمال ." إن صيغة العنونة المتجهة إلى تخصيص أنموذج مكاني محدد له

---

[١]) استراتيجية المكان : دراسة في جماليات المكان في السرد العربي ص: ٧ – د. مصطفى الضبع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ثانية – ٢٠١٨م – القاهرة . حيث كانت هذه الرؤية أملا يتمنى الدكتور الضبع أن يجد باحثا يتماس معها في دراسة أكاديمية يوما ما .

سلطة الحضور الطاغي على حركة الشخصية " [1]

وظف الروائي أدواته وآليات البناء الفني في تشكيل فضاء روايته عبر انتظام الحركة الدرامية وتلاحم الشخصيات وتتالي الأحداث وتنامي الصراع ، حتى استطاع الزقاق بعد أن انفض مولده أن يغلق دائرته ، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه . عاد إليه من عاد ، واحتفظ بوجوده ، وغادره من غادر وانتهت بهم الحياة إلى الفشل أو السقوط أو الموت . وبقي الزقاق كما هو يتجشأ عاداته ونظامه الرتيب .

تحاول الدراسة عبر توظيف المنهج التحليلي أن تتماس مع الفضاء، وتجلي علاقات مكوناته وتفاعلاتها في البناء ، وديناميه هذه العناصر أو آليات التشكل ، عبر عملية " البحث في الهوية المكانية ، وكيف يعمل المكان على إنتاج الهوية الإنسانية أولا ، والمكانية الثقافية ثانيا " [2] ، فتتبلور الرؤية الفنية للروائي ، والتي حاولنا أن نبرزها عبر حركة الشخصيات ، ونمو الأحداث ، وتطور العلاقات وتشابكها وتقاطعها في عالم الزقاق . تتناول الدراسة انعكاسات المكان / الفضاء على الشخصيات بوصفها العنصر الأكثر أهمية في صناعة الأحداث وتطورها ، وإبراز تفاعلاتها ، وحمولاتها الفكرية والإنسانية في العمل الفني . فعرضنا لسطوة المكان وحضوره ، ودوره في إنتاج هذه الشخصيات بنوعيها؛ المتمسك والراضي بالبقاء في الزقاق ، أو . الساخطون على الزقاق ، ويرونه (زقاق

---

[1]) التشكيل السردي : المصطلح والإجراء ص : ٨٣ . د. محمد صابر عبيد – دار نينوى – ٢٠١١م – سورية .

[2]) السابق ص: ٨ .

العدم) ، التي باستطاعتها أن تقدم لنا صورة مصغرة – ولو متخيلة – للمجتمع القاهري / المصري ، وتأثيرات الحرب والاستعمار وانعكاساتهما على هذا المجتمع إبان تاريخ كتابة هذه الرواية .

مصطلحات الدراسة :

* الدينامية [1]: نشاط وتفاعل آليات البناء داخل النص الأدبي عبر عملية التعالق في تشكيل الفضاء الفني .

*المكان الروائي : هو المكان اللفظي المتخيل ؛ الذي تصنعه اللغة انصياعا لأغراض التخييل الروائي وحاجاته.[2]

*الفضاء الروائي : " إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في تفاعلية الحكي التي يتم تصويرها بشكل مباشر أو التي تدرك

---

[1]) هذا المفهوم مأخوذ من مصطلح الدينامية أو الديناميكية التي تقابل الميكانيكية في العلوم الطبيعية .وهو: اتجاه يفسر جميع الظواهر بردها إلى قوى ، وأن حقيقة المادة هي الحركة . راجع : المعجم الفلسفي – مجمع اللغة العربية القاهري / ١٩٨٣م – القاهرة .وجاء في المعجم الكبير : أنها علم يعنى بدراسة حركة الأجسام ، نتيجة لتأثير قوى عليها ، واستعاره علماء الاجتماع للدلالة على التغيرات الاجتماعية تحت تأثير القوى المختلفة ؛ داخلية كانت أو خارجية . مجمع اللغة العربية – ص: ٦ / ٧٣٣، ٧٣٤ . الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث – أولى – ٢٠٠٤م – القاهرة .

[2]) مصطلحات نقد الرواية (معجم) ص: ١١٤:١١١ – د. سمر روحي الفيصل– منشور في زاوية (دائرة المعارف) في مجلة الفيصل – العدد (٢٢٨) – جمادى الآخرة ١٤١٦هـ / اكتوبر – نوفمبر ١٩٩٥م . المملكة العربية السعودية .

بالضرورة ، أو ضمنا مع كل حركة حكائية ، وفق صيغة تعالقية ، تفرز عطاءات ودلالات جمالية متعددة " [1].

أتمنى تعالى أسأل أن أكون قد وفقت في طرح هذه الفكرة ، وأن تسد محاولتي – على تواضعها – ثغرة في الدراسات النقدية في المكتبة العربية ، وأن تحظى بالقبول ، وتتحقق الفائدة بتوفيق الله إنه سميع مجيب . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

****

[1]) أفدت في صوغ ماهية هذا المصطلح مما جاء في دراسة الدكتور حميد لحمداني : بنية النص السردي . ص: ٦٤ ز وهناك الفضاء الهندسي والفضاء الجغرافي ، والفضاء الدلالي ، الفضاء الرؤيوي ، والفضاء النصي . راجع مفاهيمها في معجم مصطلحات نقد الرواية للدكتور سمر روحي الفيصل .

أولا : الدراسة النظرية

المكان .. الفضاء : علاقة عبر الإبداع

١) المكان / الفضاء : مقاربة في المفهوم .

يعد المكان في الإبداع الروائي من أهم آليات بناء الفضاء الإبداعي ، إذ لا يمكن لعمل روائي أن ينهض ويستوي فنيا إلا إذ كان المكان أحد أهم أركانه ، فالأحداث والشخصيات لا بد لها من مكان تدير صراعاتها من فوق مسرحه ، وعبر عملية التفاعل بين هذه الآليات والمكان يتشكل الفضاء الإبداعي للعمل الأدبي (الرواية) .

من هنا ، لا يمكن أن نعول كثيرا على الإبداع الذي يتجاوز المكانية ، بوصفها تقنية إبداعية تدعم الخصوصية الجمالية للعمل الأدبي ، ما يحفز مبدعا روائيا يقوم بترجمة كتاب (جمالية المكان) ، يقر بـ " أن العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفقد خصوصيته ، وبالتالي يفقد أصالته"[١].

المكان بهذه الخصوصية الإبداعية في البناء الروائي ، يمثل لدى كُتَّاب الرواية أهمية وفاعلية فنية ، إذ أنه " يحمل الخصوصية القومية للمبدع ، ويعبر عن رؤيته الإبداعية " [٢] .

وإذا كان هذا ما يتوفر للمكان في الإبداع الروائي ، فلا أقل منه يمكن أن يقال عن الأحداث والزمان والشخصيات ، حيث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويكمل أحدها الآخر ، إلا أن المكان هو العمود الفقري الذي يربط أجزاء

---

[١]) جماليات المكان ص ٥ ، ٦ غاستون باشلار – ترجمة : غالب هلسا – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – الثانية – ١٩٨٤م – بيروت .

[٢]) السابق ص : ٦ .

الرواية بعضها ببعض ... إن المكان يلد السر قبل أن تلده الأحداث الروائية، وبشكل أعمق ، وأبعد أثرا " ... إن المكان الروائي يصبح نوعا من القَدَر، إنه يمسك بشخصياته وأحداثه ، ولا يدع لها هامشا محدودا لحرية الحركة"[١].

إن تعدد الشخصيات والأحداث في الرواية يقتضي لا محالة تعدد الأمكنة ، التي تدار منها هذه الأحداث ، أو تلعب الشخصيات المختلفة على مسرحها في الرواية . ومن ثم ، لا يمكن أن نتحدث عن مكان واحد في الرواية ، تطل منه كل الشخصيات ، أو تجري على مسرحه كل الأحداث ، حتى " أن صور المكان الواحد تتنوع حسب زاوية النظر التي يُلتَقَطُ منها ، وفي بيت واحد قد يقدم الراوي لقطات متعددة تختلف باختلاف التركيز على زوايا معينة ، وحتى الروايات التي تحصر أحداثها في مكان واحد نراها تخلق أبعادا مكانية في أذهان الأبطال أنفسهم ، وهذه الأمكنة تفتح الطريق دائما لخلق أمكنة أخرى ، ولو كان ذلك في المجال الفكري لأبطالها ... إن مجموع هذه الأمكنة هو ما نطلق عليه : فضاء الرواية ؛ لأن معنى الفضاء أشمل ، وأوسع من معنى المكان . والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء . وما دامت الأمكنة في الروايات غالبا ما تكون متعددة ، ومتفاوتة ، فإن فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعا ؛ إنه العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية . فالمقهى أو المنزل أو الشارع ، أو الساحة ، كل واحد منها يعد مكانا محددا

---

[١]) الرواية العربية .. واقع وآفاق ص: ٢١٠ ، ٢١ ١ ، ٢١٢ بتصرف – مجموعة من المؤلفين ، والكلام للروائي غالب هلسا – دار ابن رشد للطباعة والنشر – أولى – ١٩٨١م – بيروت .

، وجميع هذه الأماكن في الرواية الواحدة تشكل فضاء الرواية "[١].

من خلال هذه التصور يمكننا أن نطرح الرؤية النقدية لمصطلح الفضاء الروائي الحيوي (الدينامي)[٢] ؛ لنؤكد على تلك الحركة والنشاط التفاعلي بين مفردات الفضاء ، وتعالقاتها البنائية والجمالية في تشييد النص الروائي : " إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في تفاعلية الحكي التي يتم تصويرها بشكل مباشر أو التي تدرك بالضرورة ، أو ضمنا مع كل حركة حكائية ، وفق صيغة تعالقية ، تفرز عطاءات ودلالات جمالية متعددة " [٣] . إذ " لا يمكن تصور الفضاء دون تصور الحركة التي تجري فيه " [٤] فهو بمثابة(الجغرافيا الخلاقة)[٥] في العمل الفني، وهو الكيان الاجتماعي الذي يحتوى على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه ، والمنتج للنماذج والأنماط الإنسانية المختلفة ذات القدرة والفاعلية الاجتماعية الواسعة " ..

---

[١]) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ص : ٦٣ بتصرف . د. حميد لحمداني – المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع – أولى – ١٩٩١م – بيروت / المغرب .

[٢]) الدينامية : نشاط وتفاعل آليات البناء داخل العمل الفني عبر عملية التعالق في تشكيل الفضاء الأدبي .

[٣]) أفدت في صوغ ماهية هذا المصطلح بما جاء في دراسة الدكتور حميد لحمداني : بنية النص السردي . ص: ٦٤ .

[٤]) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ص : ٦٣ .

[٥]) الرواية والمكان ص:١٨ ياسين النصير – دار الشئون الثقافية العامة – الموسوعة الصغيرة – عدد (١٩٥ / ٢) وزارة الثقافة والإعلام – العراق

٢) نجيب محفوظ والرواية :

الروائي نجيب محفوظ واحد من مهندسي الرواية المبدعين في أدبنا العربي ، يشغل مكانا بارزا في خارطته الإبداعية يرتقي به إلى منحه جائزة نوبل ١٩٨٨م العالمية في الآداب . تشكل روايته (زقاق المدق) مع سابقتيها (القاهرة الجديدة وخان الخليلي) مرحلة جديدة[١] من مراحل إبداعه الروائي ، وهي التي يطلق عليها (ملحمة روائية) يقول غالي شكري : كانت زقاق المدق فتحا جديدا في تاريخ الرواية المصرية لا يقل أهمية عن فتح (عودة الروح) لتوفيق الحكيم . وإذا كانت الحرب العالمية الأولى إحدى الركائز المهمة في قصة الحكيم ، فإن الحرب العالمية الثانية – نهايتها على وجه التحديد – هي الركيزة الأساسية في قصة نجيب محفوظ . إرهاصات الحرب كانت البداية في مأساة القاهرة والجديدة ، والحرب هي المشهد الرئيس في خان الخليلي ، والنهاية هي القاعدة التراجيدية لزقاق المدق ..." [٢].

كتبت رواية زقاق المدق في سبتمبر:١٩٤١ م إلى أبريل : ١٩٤٢م على حين كتبت سابقتاها خان الخليلي في سبتمبر:١٩٤٠م إلى أبريل: ١٩٤١م ،

---

[١]) المرحلة الثانية (الواقعية) من مراحل إبداع نجيب محفوظ ، كما أسمتها الدكتورة فاطمة موسى في بحثها المنشور ص : ٦٠١– ضمن المجلد الأول : الرجل والقمة : بحوث ودراسات احتيار وتصنيف فاضل الأسود .. الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٩م – القاهرة

[٢]) المنتمي دراسة في أدب نجيب محفوظ ص :١٤٢ د . غالي شكري – مطابع الأخبار – الرابعة – القاهرة .

والقاهرة الجديدة قبلهما في سبتمبر: ١٩٣٨م إلى أبريل : ١٩٣٩م [١] . ونشرت كذلك على التوالي بحسب ترتيبهن : القاهرة الجديدة : ١٩٤٥م ، وخان الخليلي : ١٩٤٦م ، وزقاق المدق : ١٩٤٧م [٢]. التي شكلت فرادة نوعية في المنجز الإبداعي لنجيب محفوظ[٣] " فقد استطاع أن يربط بين

---

[١]) السابق . ص :٤٥٢ ، ومن اللافت أن عام الكتابة عنده يقع ما بين سبتمبر إلى أبريل من السنة التي تليه .ويتوقف عن الكتابة طيلة أربعة أشهر بسبب مرض الحساسية في العينين والجلد .

[٢]) دراسة في أدب نجيب محفوظ ص :٤٥١. على خلاف ما أورده الدكتور عبد المحسن طه بدر في كتابه الرؤية والأداة : نجيب محفوظ ، في الهامش (١) ص : ٣٣٥ .حيث يستبعد ما ارتآه د. غالي شكري ، بل ويرفضه ويمعن في رفضه واستحالة وقوعه ..

[٣]) نجيب محفوظ : أديب مصري عربي عالمي .نال جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٨٨م.

– ولد فى عام ١٩١١ م. بمدينة القاهرة ، التحق بالتعليم وتدرج في مراحله المختلفة حتى التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة ، حيث حصل على الليسانس في الفلسفة من جامعة القاهرة .

– عمل موظفًا في هيئات حكومية متعددة ، منها : وزارة الأوقاف ـ وهيئة السينما ، ثم كاتبا مرموقًا بالأهرام تحت نافذة " وجهة نظر " خلال هذا العمر الطويل الذي تجاوز الثمانين عاما .

– كانت حياته زاخرة بالإبداع الفني ، والمعارك الأدبية ، والمقالات الفكرية .

– كاتب الرواية الأول في الأدب العربي وشيخ الروائيين العرب . أثارت إبداعاته الكثير من الجدل ، سيما رواياته التي حوت مضموناً فكريًا يختلف في تلقيه .. =

=– نال الكثير من الجوائز والأوسمة في حياته عن إبداعه ولعل أهمها قلادة النيل الدولية في مصر عشية نيله لجائزة نوبل العالمية في الآداب عام ١٩٨٨م.

الفرد وذاته من جهة ، وبين مجتمعه وباقي الشخصيات حوله من جهة أخرى . فالمكان هو الرباط المقدس لهذه العلاقات كلها ؛ بين بواطن الإنسان الداخلية بكل ما يعتلجها من صراعات ؛ نفسية وفكرية واجتماعية . وبين كل شخصية ونظيرتها من شخصيات الرواية ، وبين شخوص الرواية بأكملها . فيكشف المكان عن مأساة هذه الشخوص صورة الصراع داخل الرواية ، التي هي إحدى مخرجات هذا المكان بكل ما فيه من مؤثرات "[١] . وهذا ما جعل ناقدا كالدكتور نبيل راغب يزعن لمقولة : إن البطل الحقيقي في رواية زقاق المدق ، إنما هو الزقاق نفسه وباقي الشخصيات في الرواية تقوم بدور الأبعاد المجسمة للتكوين الاجتماعي والنفسي للزقاق"[٢].

– من أهم أعماله الإبداعية : الثلاثية ، وزقاق المدق ، وحكايات حارتنا ، وخمارة القط الأسود ، وميرامار ، وعبث الأقدار، و كفاح طيبة ، والقاهرة الجديدة ، وخان الخليلي وحب تحت المطر وأولاد حارتنا وغيرها. صورت أكثر هذه الأعمال سينمائيًا وتلفزيونيًا في أفلام ومسلسلات تذاع في دور السينما وقنوات العرض الفضائية في العالم ، كما ترجمت أكثر أعماله إلى العديد من لغات هذا العالم .

[١] امتزاج الشخصية في المكان في أدب نجيب محفوظ .. زقاق المدق أنموذجا (مقال) للناقدة مريم الشنقيطي – جريد الجزيرة عدد (١٤٩٩٦) في : ١٤ من ذي الحجة ١٤٣٤هـ / ١٩ أكتوبر ٢٠١٣م – المملكة العربية السعودية .

[٢] قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ص : ١٠٨ ، ١٠٩، .الهيئة المصرية العامة للكتاب – ثالثة – ١٩٨٨ م – القاهرة .

٣) زقاق المدق : المكان .. الخيال :

في تعريف الزقاق ، يقول الروائي محمد جبريل في دراسته (مصر المكان) [١] : الزقاق في اللغة هو الطريق الضيق ّ، نافذا أو غير نافذ ، ويجمع على أزقة ، وهو أصغر من الدرب ، وربما يتفرع عنه ، ويختلف الزقاق عن الشارع والدرب والحارة والعطفة ، في أنه لا يفضي إلى شيء . في نهايته بيت أو مخزن أو متجر أو حائط . ولخصوصية المكان ومحدوديته ، فإن العلاقات بين سكانه تختلف عنها في أماكن أخرى ، وبالتحديد . فإن العلاقة بين أبناء الزقاق بدهية ، أو مفترضة . المدخل واحد ، ووحيد ، والنوافذ تقترب فتكاد تتلاصق ، وتطورات الحياة معلنة ، والخلافات الطارئة ما تلبث أن تغيب بتدخل الجيران ، أو بتجدد اللقاءات ، والتكافل يفرض نفسه ، فيبدو الجميع كأنهم أفراد أسرة واحدة ، يتفقون ويختلفون ، وربما علا بينهم الشجار ، لكن خصوصية العلاقة سمة ثابتة ومتواصلة ، والوجه الغريب يسهل اكتشافه ، والعلاقات المحرمة يصعب حدوثها داخل الزقاق ، الكل يعرف الكل ، فلا سبيل إلى التجاهل أو التغاضي أو الادعاء بما ليس صحيحا ".

أما في الرواية فيمسك الأديب نجيب محفوظ آلة تصويره (كاميرته) ليصور لنا (زقاق المدق/المكان) ؛ عبر تقنية الوصف : " .. زقاق المدق من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يوما في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدري .. أي قاهرة أعني ؟ .. الفاطمية ؟ المماليك ؟ السلاطين، علم ذلك

---

[١]) مصر المكان : دراسات في القصة والرواية ص : ٢١٦ ، ٢١٧ – الهيئة العامة لقصور الثقافة –كتابات نقدية / عدد (٧١) – فبراير ١٩٩٨م – القاهرة .

عند الله وعند علما الآثار ، ولكنه على أية حال أثر، وأثر نفيس . كيف لا ، وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا إلى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذي صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد ..! "[١]

ثم يتدخل الراوي ليصف ما عجزت عنه آلة تصويره كي تكتمل الصورة الحية للزقاق: " ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش في شبه عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا ، إلا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل في أعماقها بجذور الحياة الشاملة ، وتحتفظ – إلى ذلك – بقدر من أسرار العالم المنطوي"[٢] .

يقول الدكتور غالي شكري [٣] : الزقاق هو نقطة انطلاق نجيب محفوظ إلى أعمق أبعاد المأساة المصرية ؛ لأنه رآها ترتبط بمأساة الإنسانية المتشابكة ، الزقاق هو العين الفنية الحادة التي أبصرت ضياع القاهرة الجديدة ، في مستوى أكثر عمقا ".

يصنع نجيب محفوظ عبر هذه العتبة التي تمثل المدخل إلى عالم الفضاء / المكان الروائي ،علاقة ما بين المكان والإنسان ، حيث تختفي البطولة الواحدة (البشرية) ، وتبرز أمامنا أنماط بشرية مختلفة ، تتحرك في اتجاهات متعددة ومتعاكسة ، يربط ما بينها المكان / الزقاق . فجميع الشخصيات نتاج

---

[١]) زقاق المدق ص : ٥ نجيب محفوظ – دار مصر للطباعة – دت – القاهرة .

[٢]) السابق ص : ٥ .

[٣]) المنتمي: دراسة في أدب نجيب محفوظ ص : ١٤٢ ، ١٤٣ .

هذا الزقاق ؛ مسرح لعبهم مباراة الحياة بكل ضجيجها ، حيث " يمثل المكان دورا أكثر وضوحا ذا دلالة عميقة ، بل إنه يمثل العنصر الأساس في هذه الرواية بكل ما فيه من قيم ذات طابع شمولي ، يتشكل عبرها الصراع على أساس من العلاقات المتشابكة في داخله بجانب صلته المرتقبة مع الخارج ، ومؤثراته الطارئة ، فيحرك المؤلف الحوادث والشخصيات من خلال علاقتها بالمكان وتفاعلها مع المؤثرات الوافدة " [١].

ويدنو بنا الروائي نحو الزقاق أكثر ليرينا ما بداخله من منازل وبشر وحوانيت موظفا الزمن توظيفا يتجاوز الواقع إلى الرمزية : " آذنت الشمس بالمغيب ، والتف زقاق المدق في غلالة سمراء من شفق الغروب / زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصنادقية ، ثم يصعد صعودا في غير انتظام ، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن ، وتحف بالجانب الآخر دكان ووكالة ، ثم ينتهي سريعا – كما انتهى مجده الغابر– ببيتين متلاصقين ، يتكون من طوابق ثلاثة " [٢] .

فالمكان الذي يصوره نجيب محفوظ في هذا المقطع ، هو مكان – على قدمه وعراقته ، التي كانت أكثر صلابة وأشد تأبيا من الحاضر بكل ما يدعيه من تقدم وتحضر بدا زائفا – حيوي ، حي متفاعل ، تضج كل مفرداته بالحياة والدفء برغم التؤدة والهدوء الباديان في حركة التصوير ، فهو يتحرك "

---

[١]) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص:١١٧ ، ١١٨ بتصرف . سليمان الشطي– الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٤م – القاهرة .

[٢]) زقاق المدق ، ص : ٥ .

خطوة فخطوة " [١] ، يكشف عن علاقة تلازمية بين الزمن والمكان الذي يشكل الفضاء الروائي بوصفه " حيزا (زمكانيا) تتمظهر فيه الشخصيات والأشياء متلبسة بالأحداث تبعا لعوامل عدة تتصل بالرؤية الفلسفية وبنوعية الجنس الأدبي ، وبحساسية الكاتب أو الروائي " [٢] ، فإقبال الغروب ورواح النهار ، وإرداف الليل بظلامه الذي يلف الزقاق بغلالته السمراء ، وتمازجه مع الصورة الوصفية / التشكيلية للمكان ، حيث الزقاق الغارب الذي يحمل على عاتقه بقايا مجده الغابر ؛ كل هذا يرمز لحال كل شيء في مصر وقتئذ ؛ القضايا أو الآمال والأحلام!! . وهذا ما يكشف عن "عناية نجيب محفوظ بالزقاق بوصفه بطلا . ومن ثم ، تصبح الخلفية الاجتماعية هي المسيطرة على الشكل العام وباقي الشخصيات سواء كانت أساسية أو ثانوية ليست إلا مجرد جزئيات مكونة له .. ومن هنا ينتفي مفهوم البطل الدرامي ولا يمكن تطبيقه شخصيات الزقاق ؛ لأن الزقاق هو الذي يُكون شكل الرواية .. وظروفه الاجتماعية هي التي تؤثر بالتالي في الشخصيات وليست الشخصيات هي التي تؤثر في الظروف الاجتماعية .. ولذلك سارت كل الشخصيات تحدها وتشكل تصرفاتها الطبقة التي نشأت فيها والتي تنتمي

---

[١]) نجيب محفوظ : الطريق والصدى ص : ١١١ د علي شلش – الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتاب الثقافة الجديدة – ديسمبر / ١٩٩٣م – القاهرة .

[٢]) جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر ص : ١٢٥ د. عبد الله أبوهيف – مجلة جامعة تشرين – الآداب والعلوم الإنسانية – مجلد (٢٧) العدد (١) – ٢٠٠٥م – سوريا .

إليها ".[1]

فالمكان بهذا الحضور في العملية الإبداعية ، يغدو تجربة معاشة ، [2] " المكان المعاش بوصفه تجربة داخل العمل الروائي ، والقادر على إثارة ذكرى المكان عند القارئ ؛ هو مكان عاشه مؤلف الرواية ، وبعد أن ابتعد عنه أخذ يعيش فيه بالخيال ، وليس المكان الهندسي الخاضع لقياسات مسَّاحي الأراضي أو مهندسي التنظيم ، بل هو مكان عاشه الأديب كتجربة .. تعيش في داخل جهازه العصبي كمجموعة من ردود الأفعال . فلو عدنا إليه حتى في الظلام فلسوف نعرف طريقنا إلى داخله ".

[1]) قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ص :١٠٩ ، ١١٠ .

[2]) الرواية العربية واقع وآفاق ص : ٢٢٣ وما بعدها بتصرف . لعدد من الباحثين – دار ابن رشد للطباعة والنشر – أولى – ١٩٨١م – بيروت . وفي هذا الموضع يقر غالب هلسا بأن نجيب محفوظ من كتاب الرواية القلائل الذين نجحوا في خلق المكان كتجربة خاصة في رواياته التي تحمل أسماء أماكن كعناوين لها . ص : ٢٢٥ .

القسم الثاني:الدراسة الفنية
تَشكُّلات الفضاء عبر علاقة الشخصيات بالمكان

****

تتشكل العلاقة في الإبداع الروائي بين المكان والشخصيات، فتكون أكثرا فاعلية ووضوحا وتأثيرا ، بوصف المكان هو العنصر الرئيس في تشكيل الأنماط البشرية، والمجسد لمآسيها وآلامها وآمالها في الحياة . فالمكان هو صانع الأحداث، وهو يعكس في الآن نفسه وجودها في الفضاء الروائي . ومن هنا ، " يصبح الحدث الروائي عامل الاتصال الوثيق بين الشخصية والمكان ، ويأخذ المكان دوره في تحديد معالم الشخصية الخارجية / الباطنية ، ويتخذ الأديب من المكان طريقا لتصوير حيوات الشخوص وأفكارهم ،وإيجابياتهم وسلبياتهم ، بل تطلعهم للتغيير واجتياز المأساة .. إذ يصبح المكان عنصرا تتفاعل خلاله الأحداث والشخوص ، ويلعب المكان دوره في إبراز معالم نفسية كل الشخوص على تعددهم .. ومن ثم ، يبرز أهمية وخطورة دور الشخصيات الروائية في بلورة النقد الاجتماعي ، أو طرح المفاهيم الخاصة أو الفلسفية أو العقائدية حول الحياة في هذا الواقع ، من خلال عملية التلاحم بين الشخصيات والمكان".[١]

وفق هذه الرؤية التي يصبح المكان هو عامل الاتصال الوثيق والمنتج للشخصيات في الرواية ، وتتشكل وفق الوعي الجمالي الذي تطرحه الرؤية

---

[١]) الشخصية وأثرها في البناء الفني لروايات نجيب محفوظ ص: ٣٢٦ ،٣٢٧ . بتصرف – د. نصر محمد إبراهيم عباس– مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع – أولى –١٩٨٤م – المملكة العربية السعودية .

الفنية للمبدع . الذي يحمل على عاتقه مهمة بناء هذه الشخصيات التي تتفاعل أو تتقاطع عبر مسارات الفضاء الروائي.

إن المكان هو الذي يشكل البنية الأساسية ، والشخصيات بتفاعلاتها وحركيتها الدائبة قادرة على أن تستكمل الصورة ، وتعيد تشكيل فضاءاتها على نحو يسهم في بناء الفضاء / العالم العام للرواية . ولعل الذاكرة النقدية تشكل هذه الفكرة عند الناقدين للفن الروائي ، حيث تزخر الدراسات النقدية للمكان بما يكشف عن العلاقة بين المكان ومنتجه من الشخصيات عبر" علاقة تأثير وتأثر بين المكان والشخصيات ، باعتبار أن المكان عنصر أساس في تشكيل بنية الشخصيات ، كما أن الشخصيات هي التي تعمل على تشكيل المكان ، وذلك باختراقه ، وتجسيد الأحداث فيه ، الأمر الذي يؤكد أن المكان حقيقة معاشة ويؤثر في البشر بالقدر نفسه الذي يؤثرون فيه ..وإذا كان المكان يتخذ دلالته التاريخية والسياسية والاجتماعية من خلال الأفعال وتشابك العلاقات ، فإنه يتخذ قيمته الكبرى من خلال علاقته بالشخصية ؛ لأن الذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها ، ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود ، لتصبغ كل ما حولها بصفتها وتسقط على المكان قيمها الحضارية . ومن هنا يصبح المكان قطعة شعورية وحسية من ذات الشخصية نفسها ، ولا غرابة في أن الروائي يلجأ عند تصميم المكان إلى مطابقة هذا المكان مع طبائع الشخصيات ومزاجها ، ويجعله كاشفا عن الحالات الشعورية والمنعدمة الشعور للشخصيات، ومُسْهِمًا في التحولات التي تطرأ عليها ، وكأنه هنا يقوم بدور العاكس لمشاعر الشخصيات وأحاسيسها ، فيقوم بدور البطل باعتباره تصويرا لغويا يشكل معادلا حسيا ومعنويا للمجال الشعوري والذهني

للشخصية" [١] .

فالزقاق / المكان بهذه الحيوية والحضور يصبح هو العنصر الأهم في رواية زقاق المدق، حيث يفرز عبر خلاياه كثير من النماذج والأنماط الإنسانية، التي ترمز إلى شرائح قائمة وحية في المجتمع ليس باستطاعتها الحياة إلا داخل هذه الخلية / الزقاق . ومن ثم ، ستعيش وتنمو وتترع داخل أنسجته ، وفي نسيج خيوطه ، ومن يتمرد عليه ستنتهي به الحياة إلى الفشل أو إلى السقوط أو إلى الموت ؛ هواء الزقاق هو الوقود الذي يمنحهم الحياة ، والنمو ، والتطور والحياة . أما خارجه فلا يوجد هذا الرحيق . ومن ثم ، يتساقطون كالذباب !!. وهذا ما يدفع الدكتور علي شلش لأن يقر بأن : " المكان في زقاق المدق " يهيمن على الجميع لأول مرة ، ربما لأن قبضة الراوي المهيمنة خفت هنا لأول مرة أيضا ، كما خف ثقل الشخصية المحورية الواحدة ، وداخل هذا الإطار المرن شغلنا المؤلف بحكايات عديدة عن عاهات الزقاقين ، وبؤسهم ، وتطلعاتهم ، وغرامياتهم السوية والشاذة ، وخيبات أملهم ، ونسائهم الكادحات اللواتي يقاتلن الرجال ولا يستغنين عن ظلهم ... فهو يبدأ بتقديم المكان خطوة فخطوة .. ثم يعرفنا بالشخصيات، واحدة تلو الأخرى ، ثم ينفخ فيها الحياة والحركة، وإن كانت تبدو حركتها في البداية

---

[١]) تلمسات نظرية في المكان وأهميته في العمل الروائي فيما نقله على التوالي من : مشكلة المكان الفني ليوري لوتمان ترجمة سيزا قاسم ، وبناء الشخصية الرئيسة في روايات نجيب محفوظ لبدري عثمان .. بتصرف (بحث) – د. سليم بتقه – مجلة المَخبَر – العدد –(٦) – السنة (٢٠١٠ م) – كلية الآداب واللغات / جامعة محمد خيضر– بسكرة – الجزائر .

عادية بطيئة واهنة." [١]

فالمكان بوصفه الأداة الإبداعية الأكثر حضورا وهيمنة في الفضاء الروائي ، إذ كان يصنع مع الشخصيات وعبر العلاقة السببية التي أوجدها الروائي تفاعلية خاصة جعلت من المكان منتجا للشخصيات ، والشخصيات ما هي إلا انعكاسا لحيويته . إنها علاقة تكاملية متفاعلة ونامية ، تتشكل عبرها ملامح الشخصيات ، وتتبلور منطلقاتها وقيمها وسلوكاتها ووعيها الإنساني " إنها تمثيل للتكامل بين الزقاق وأهله ، ... إذ يتحول الزقاق (المكان) إلى ما هو أكبر من كونه مكانا ما يجتمع فيه مجموعة من الناس ، إنه يتحول إلى مقياس له قدرته على التأثير سلبا وإيجابا ، خارجا من حدود الشيء البارد الذي لا يعني أكثر من الديكور.... إلى اتساع امتداده التأثيري بحيث يصبح جزءا من نفسيات أهل الزقاق جميعا ، ينعكس فيه ما يدور، سواء الراحل المشرف على الزوال ، أو بشائر القادم الجديد "[٢] . ومن ثم، لا تظهر الشخصيات " ولا تُرى إلا من خلال موضعها في الزقاق ، وبوصفها امتدادا لتاريخ الزقاق وواقعه ، وهي أيضا مرتبطة بالمكان كقيمة [٣] معينة مستمدة من وضع الزقاق "[٤] .

الشخصيات في رواية (زقاق المدق) لا ترى ولا تتشكل ملامحها

---

[١]) نجيب محفوظ : الطريق والصدى ص :١١١ .

[٢]) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص : ١٢٠ بتصرف .

[٣]) هكذا كتبت في الأصل بصيغة التشبيه ، ولا تشبيه !! ولعل الأصوب أن نقول : بوصفها قيمة . فهي كنهها وليست تشبهها .

[٤]) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص : ١١٩ بتصرف .

الخارجية وخصائصها النفسية إلا من خلال مواضع إقامتها في فضاء الزقاق ، وكأن هذه الأنماط البشرية صناعة هذه الأمكنة ، وهي التي صنعت هذه الصور البشرية على نحو مختلف ؛ لا تنمو ولا تتطور إلا داخل هذه التربة ، فالمكان كما يقول جاستون باشلار :" هو حالة نفسية .. هو جسد وروح ، وهو عالم الإنسان الأول ..هو أحد أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية.. يمنح الماضي والحاضر والمستقبل (ديناميات) مختلفة ، كثيرا ما تتداخل ، أو تتعارض ، وفي أحيان تنشط بعضها بعضا "[١]. هذه العلاقة هي التي تحمي هذه الشخصيات من التبدد والضياع ، إذ كل من فكر في الخروج على طبيعة هذه العلاقة المكينة والمتشابكة أسقط في دوامة الزوال والانمحاء ، وحتى ولو لم يدركه هذا الطموح أو يراوده حلم التمرد ، أو البحث عن أفق جديد في هذا العالم[٢] . ومن هنا ، لم يكن المكان عند نجيب محفوظ سيما في رواياته التي يمكن أن نطلق عليها: روايات مكانية[٣] مجرد " إطار استاتيكي ، يحتضن الأحداث ، ويلتف حول حركية الشخوص ، ويستوعب سيولة الزمن ، لكنه كان عنصرا جوهريا ظاهرا وخفيا في آن ، داخل بوتقة المزيج الروائي المتجانس . فالمكان في صيرورته وتفاعلاته مع الناس والأحداث ، هو كائن حي ، ينمو ، يتحرك ، يتأثر ، يؤثر ، يحب ، يكره . إن بيت الإنسان (مكانه) هو امتداد لنفسه ، فإذا وصفت البيت

---

[١]) جماليات المكان ص: ٣٧ ، ٣٨ . بتصرف .

[٢]) كشاعر الربابة .

[٣]) مثل روايات زقاق المدق وخان الخليلي والقاهر الجديدة ، الثلاثية : قصر الشوق والسكرية وبين القصرين .

(المكان) فقد وصفت الإنسان ، وبدون البيت يصبح الإنسان كائنا مفتتا"[١].

يؤسس الدكتور سمر روحي الفيصل للعلاقة بين المكان والفضاء- وفق رؤيته التي ربما لا تتجاوز ما طرحناه كثيرا – لما بينهما من صلة وثيقة وإن اختلفا في المفهوم يقول: " نقصد بالمكان المكان الروائي المفرد ليس غير ، ونقصد بالفضاء الروائي أمكنة الرواية جميعها ، بيد أن دلالة مفهوم الفضاء لا تقتصر على مجموع الأمكنة في الرواية فحسب ، بل تتسع لتشمل الإيقاع المنظم للحوادث التي تقع في هذه الأمكنة ، ولوجهات نظر الشخصيات فيها . ومن ثم ، يكمن نجاح الروائي في قدرته على أن يجعل الأمكنة الروائية متكاتفة ، تؤثر في الأحداث وتتأثر بها ، وتسهم في تطور الشخصيات التي تحل فيها أو تخترقها . يقدم أمكنته عبر وسائطه المختلفة ، وهي تفضي جميعا إلى فضاء واحد يحيط بها ؛ ينظم حركتها ، ويجعلها أكثر عمقا وإيحاءً من دلالاتها المكانية الضيقة " [٢].

فالشخصيات في رواية زقاق المدق كانت نتاج الزقاق / المكان / البيئة / الفضاء ، يحاول نجيب محفوظ ببراعته الروائية ، وعرامته الإبداعية ، أن يخلقها من طينة هذا الزقاق ، يعجنها بمائه ، ويغرسها في تربته المخصبة ، فالمكان وهو المسرح الروائي الذي نجح محفوظ إلى حد بعيد في أن تبرز كل

---

[١]) نجيب محفوظ الحاضر بخرائطه مقال للناقد شريف الشافعي – منشور في بوابة الأهرام الإليكترونية (المقهى الثقافي) الثلاثاء ٢٠١٩/١٢/١٧م – القاهرة .. وبعض الكلام منقول عن باشلار من: جماليات المكان ص : ٣٨.

[٢]) الرواية العربية : البناء والرؤيا ص : ٧٤ بتصرف . د. سمر روحي الفيصل – منشورات اتحاد الكتاب العرب – ٢٠٠٣م – دمشق .

شخصياته في زواياه المختلفة ؛ المظلم منها والمضيء ، كل الشخصيات على اختلاف أدوارها وأنماطها وتناقضاتها ، كانت تتنافس في لعب أدوارها ببراعة من فوق خشبة هذا المسرح ، حتى وإن بدت " ظروف جميع هذه الشخصيات واحدة متشابهة إلا أن نجيب محفوظ كان يؤكد على الظروف الخاصة بكل منها ، ومن تفاعل الظرف العام مع الظرف الخاص يتولد المصير الفردي للشخصية " [١] .

كان هدف محفوظ إبراز جميع الشخصيات ؛ عباس الحلو ، وحميدة ، وحسين كرشة ، وأبيه المعلم كرشة ، وعم كامل ، والدكتور بوشي ، والسيد رضوان الحسيني ، والسيد سليم علوان ، الفران جعدة وزوجه حسنية ، وزيطة صانع العاهات ، وسنية عفيفي ، وأم حميدة ، وزوج المعلم كرشة ، وفرج القواد ، وغيرها من شخصيات الرواية " وهم يشكلون مجموع شخصيات متناقضة ، بل ومتنافسة ، يجتمعون في هذا المشهد (البانورامي) الذي يعكس الجوانب النفسية والاجتماعية والعاطفية والاقتصادية لسكان القاهرة ، في فترة الحرب العالمية الثانية " [٢] ، حيث تبرز عبر هذه الشخصيات انعكاسات هذه الحرب ودلالاتها في شتى جوانب الحياة المصرية آنذاك .

وإذا كان عالم الزقاق يسمح لبعض أشعة الحياة أن تنسرب إلى واقعه ، وتتطاول هذه الأشعة وتمتد ، فيصبح لها تأثيرها على حركة الناس والحياة

---

[١]) المنتمي : دراسة في أدب نجيب محفوظ ص : ١٤٦ .

[٢])) زقاق المدق : الحب بطل كل الأشياء (مقال) للباحث محمود الصباغ. منشور في مجلة : الحوار المتمدن (الإليكترونية) محور : الأدب والفن – العدد (٥٩٩٦) – بتاريخ : ١٨/ ٩/ ٢٠١٨م

في الزقاق، فإن لمرور الزمان دوره الفاعل في إدارة هذه الحركة في فضاء الزقاق ، حيث يترك الزمن بصمته الواضحة على الزقاق " .. زقاق المدق من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يوما في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدري .. أي قاهرة أعني ؟ .. الفاطمية ؟ المماليك ؟ السلاطين، علم ذلك عند الله وعند علما الآثار ، ولكنه على أية حال أثر، وأثر نفيس . كيف لا ، وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا إلى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذي صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد ..! " [1] " هذا التغيير وهذه الحركة وانعكاساتها البطيئة في شخصيات الزقاق ، تجعل عملية التحول صعبة في الواقع، وإن كانت ممكنة على ضآلتها!! . فنجيب محفوظ يحاول أن يقنعنا بأن" التغيير كان عارضا يمس السطح ولا يمس القاع ، لكن قبوله لإمكانية حدوث التغيير يترك أثرا إيجابيا على رؤيته للأحياء الشعبية ، وعُمق رؤيته لها ، فلم تعد هذه الأحياء في حاجة لزائر غريب من البرجوازية الصغيرة يتحرك في عالمها الثابت الراكد ، ولكن البشر أنفسهم أصبحوا هم مصدر الحركة والفعل ، ولم يعد المؤلف يتعامل معهم ككتلة واحدة متجانسة متشابهة ولكنهم أصبحوا ينقسمون فيما بينهم إلى قسمين رئيسين"[2] :

---

[1]) زقاق المدق ص : ٥ .

[2]) هذا بخلاف التقسيم الذي يقدمه الدكتور عبد المحسن طه بدر في كتابه : الرؤية والأداة : نجيب محفوظ حيث قسم شخصيات زقاق المدق لثلاثة أنواع ولم أر بين النوعين

الأول : الذين قهروا في نفوسهم الشهوة والتطلع وهؤلاء يمثلون الفئة الناجية ، ويسيرون إلى الطريق الوحيد للخلاص في عالم الزقاق ، وهؤلاء هم غالبية الشخصيات الزقاق .

الثاني : الذين يتطلعون لملاذٍ الحياة المادية التي تعيشها القاهرة الجديدة خارج الزقاق ، وينجحون في الإفلات من قبضته ، ويتحركون خارجه في سرعة إلى الكارثة والمأساة من أمثال(حميدة)، ومَن يرضون بالحياة في الزقاق قانعين بمعاناة حياتهم بخيرها وشرها ، فإذا زاد طموح أحدهم وتطلعه ، كان مؤشرا لكارثة تصيبه ، أمثال (عباس الحلو) ، إذ كان يتأرجح بين حالات الرضا بما قُسم ، وتطلعاته لإرضاء محبوبته (حميدة) التي تدفعه شهواتها لمصيره المأساوي.

* الشخصيات من النوع الأول :

وهم الذين قهروا في نفوسهم الشهوة والتطلع وهؤلاء يمثلون الفئة الناجية ، ويسيرون إلى الطريق الوحيد للخلاص في عالم الزقاق ، وهؤلاء هم غالبية الشخصيات الزقاق .حتى وإن امتدت حركتهم خارج الزقاق كانت خروجا إلى الله وأداء لفريضة مقدس (الحج) يتم بها دينه ، مثل السيد رضوان الحسيني ، ولم يكونا رفضا أو تمردا على الزقاق .

(١) عم كامل (بائع البسبوسة) ، شخصية تنطق في عفوية وسذاجة نادرتين تشيان بملامحه الساخرة ، في تشكيل (كاريكتوري) مضحك ، لا تدري

الأخيرين كثير اختلاف ، إذا مصير كل منهما السقوط في وهدة الرذيلة كحميدة ، أو الموت لعباس الحلو .ص:٣٣٧ ، ٣٣٨ – دار المعارف – ثالثة – دت – القاهرة .

أيهما يصنع الآخر!: [١] .

" بيد أن دكانين – دكان عم كامل بائع البسبوسة علي يمين المدخل وصالون الحلو على يساره – يظلان مفتوحين إلى ما بعد الغروب بقليل . ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيا على عتبة دكانه – أو حقه على الأصح – يغط في نومه والمِذَبَّة[٢] في حجره ، لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق . هو كتلة بشرية جسيمة ، ينحسر جلبابه عن ساقين كقربتين ، وتتدلى خلفه عُجَيزة كالقبة مركزها على الكرسي ، ومحيطها في الهواء ، ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياه، ولا ترى له رقبة ، فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم ، أخفي انتفاخه معالم قسماته ، فلا تكاد ترى في صفحته ، لا سمات ولا خطوط ، ولا أنف ، ولا عينان ، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز عن لون بشرته البيضاء المحمرة ، لا يزال يلهث ويشخر كأنه قطع شوطاً عدوا، ولا ينتهي من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه النعاس".

فشخصية عم كامل ، شخصية نتاج هذا الزقاق " البطل الحقيقي في الرواية [٣]، فعم كامل واحد من شخصيات هذا المكان يقوم بدوره مع الآخرين في تقديم الأبعاد المجسمة للتكوين الاجتماعي والنفسي للزقاق . فاعتناء الكاتب موجه أولا للزقاق بوصفه البطل الذي يقدم هذه الأنماط

---

[١] زقاق المدق ص:٦ .

[٢]) المِذَبَّة : ما يُذَبُّ بها الذُّبَاب .

[٣] قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ : ص ١٠٨ ، ١٠٩ بتصرف . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ثالثة . ١٩٨٨م . القاهرة .

البشرية ، فظروف الزقاق في كل أبعادها ، هي التي تؤثر في الشخصيات ، وليس العكس ، فعم "كامل" جزء من هذه البنية الغارقة في الفقر والجهل ، المثيران للتقزز والغثيان وربما الإشفاق والرثاء ، ... زقاق العدم كما تقول (حميدة) "... فعم كامل أحد هذه الشخصيات التي قَدَّمَتْ مجتمعه بملامحها المتفردة صورة حية لقطاع من قطاعات المجتمع المصري أثناء الحرب العالمية الثانية ، التي كان لها التأثير المباشر على شخصيات الزقاق ... فنجيب محفوظ يوظف الشخصية هنا " بوصفها أداة للتعبير ، وليس بوصفها أنموذجًا بشريًا " . [١]

(٢) السيد سليم علوان (صاحب الوكالة) : "... في حين أخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمالها ، وكان آخر من غادرها السيد سليم علوان ، يرفل في جبته وقفطانه فاتجه صوب الحانطور الذي ينتظره على باب الزقاق، وصعد إليه في وقار ، وملأ مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان "[٢] .

السيد سليم علوان واحد من وجهاء الزقاق ، فهو يملك وكالة تعمل في التجارة ، ويسهم في حركة الأحداث التي تجري في الزقاق سيما وهو يختلس النظر كلما سنحت الفرصة لنافذة حميدة ؛ فتاة الزقاق ، وينتهز الفرصة ويطلب حميدة للزواج مستغلا غياب خطيبها عباس الحلو، إلا أن القدر حال بينها بمداهمة مرض الذبحة لصدره الذي غيبه عن الوعي وغيب حميدة عن

---

[١] المنتمى : دراسة في أدب نجيب محفوظ: ص ١٤٩ بتصرف . غالي شكري . دار المعارف . مكتبة الدراسات الأدبية عدد (٥١) . ط ثانية . ١٩٦٩م . مصر.

[٢]) زقاق المدق ص : ٦ .

أمله في الظفر بها !! .فنجيب محفوظ كان يعتمد على " نمو الحدث الروائي وتتابعه في تقديمه لتلك الشخصيات " [١] سيما والسيد سليم علوان كان له حضوره الذي يعد الوجه المقابل لفقراء الزقاق ، إذ يمثل أنموذجه القيمة المادية ، ويرمز إلى الطبقية القائمة في الواقع ، والروائي يعتمد في صياغته لهذ الأنماط البشرية ، التي تسكن الزقاق على الثنائيات الضدية ، فكل شخصية على مسرح الأحداث لها ما يقابلها أو يضادها ، " وهذه هي السمة البارزة في البناء الموضوعي لزقاق المدق " حيث السمات أو الخصائص أو الدوافع الخاصة لكل شخصية في الزقاق تدفعها لأن تكون مقابلة للأخرى ، حتى ولو تشابهت ظروف الجميع في عالم الزقاق .

(٣) المعلم كرشه (صاحب المقهى) : " ... وكاد المدق أن يغرق في الصمت ، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية عشش الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها السمار . هي حجرة مربعة الشكل في حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك ، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها ، وعدة أرائك تحيط بها ، وعند مدخلها كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها ... " [٢] .

المعلم كرشة هو رمز الشذوذ السياسي، والانحطاط الأخلاقي ؛ الذي كثيرا ما لا يتخلى عن قرينه الفساد السياسي !! في عالم الزقاق، وقهوته كانت تسطع بالحركة والحياة عندما كانت تخفت أو تخف حركة الزقاق. وهو برغم شذوذه لكنه يتمتع بصحة جيدة رغم شيخوخته ما يجعله مقابلا للسيد سليم

---

[١]) صورة المرأة في الرواية المعاصرة ص :٢٩٦ . د. طه وادي

[٢]) زقاق المدق ص: ٧ .

علون الثري ذي الأبناء الناجحين لكن المرض أنهكه وذهب بهناء الحياة ومتعها التي يمكن جلبها بالمال الذي يملك منه الكثير. فأهل الزقاق وإن كانوا إفراز بيئة واحدة وظروف متشابهة إلا أنهم بشر؛ لهم دوافعهم المختلفة التي تدفع أمثالهم في اقتناص فرص الحياة ، كالحب والمال والشهوة والغرائز والقناعة والطمع والمال والجاه والسلطة وتظهر في حياتهم الحظوظ والأنصبة والأقدار التي تعمق بينهم عواطف وأفكار متقابلة أو حتى متصادمة !!.

(٤) الشاعر (عازف الربابة) : " ... ثم أقبل على القهوة عجوز مُهدَّم ، لم يترك له الدهر عضوا سالما ، يجره غلام بيسراه ، ويحمل تحت إبط يمناه ربابة وكتابا ، فسلم على الحاضرين ، وسار من فوره إلى الأريكة الوسطى في صدر المكان واعتلاها بمعونة الغلام ، ثم صعد الغلام إلى جانبه ، ووضع بينهما الربابة والكتاب ، وأخذ الرجل يهيئ نفسه ، وهو يتفرس في وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن أثر حضوره في نفوسهم ، ثم استقرت عيناه الذابلتان الملتهبتان على صبي القهوة (سنقر) في انتظار وقلق ولما طال انتظاره ولمس تجاهل الغلام له ، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ :

– القهوة يا سنقر ... ! " [١] .

إلا أن غلام القهوة تمادى في التغافل عنه وإهماله مما حفز الشاعر لأن يحدجه بنظرة شذراء ساخطا :

– قليل الأدب." [٢] .

لكنه لم يبال ، فتجاهل هذا الإهمال وذاك التنكر ، فارضا نفسه على

---

[١]) زقاق المدق ص: ٧ ..

[٢]) السابق ص : ٨ .

المكان ومن يديرونه ، فآخذ يستعد لممارسة طقوسه ليتهيأ لأداء وصلة الشعر على أنغام الربابة ، وما أن بدأ ليحكي جزءا من ملحمة الهلالية التي تعود على أدائها منذ ما يزيد على العشرين عاما حتى باغته صوت المعلم صاحب القهوة :

– " هُسْ ![1] . . ولا كلمة أخرى ...

فرفع بصره الذليل عن الربابة فرأى المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل ووجهه الضارب للسواد وعينيه المظلمتين النائمتين ، فنظر إليه واجما ، وتردد قليلا كأنه لا يصدق ما سمعت أذناه ، وأراد أن يتجاهل شره ، فاستدرك منشدا : يقول أبو سعدة الزناتي ..

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا:

– بالقوة تنشد ؟! انتهى .. انتهى ! ألم أنذرك من أسبوع مضى ؟!.. عرفنا القصص جميعا وحفظناه، ولا حاجة بنا إلى سردها من جديد ، والناس في أيامنا هذه لا يريدون الشاعر ، وطالما طالبوني بالراديو وها هو ذا الراديو يركب ، فدعنا ورزقك على الله " [2] .

حاول الشاعر أن يقنع المعلم بجدوى عمله وإنشاده للسيرة باللين مرة والاستعطاف مرات إلا أن المعلم أصر على أن شمسه قد أفلت وأن شعره لم يعد بذي قيمة ولا يحقق رغبة زبائنه ، وواجهه المعلم بقراره الصارم :

---

[1]) هُسْ : أمر بالسكوت ، وهس هسيسا : الكلام أخفاه . المعجم الوسيط ، مادة : هس .

[2]) زقاق المدق ، ص :٩ .

-" قلت لقد تغير كل شيء" [١] .

شخصية الشاعر هنا ترمز إلى الصراع بين القديم والجديد ؛ الصراع بين العناصر الغاربة مع الوافد الجديد على حد قول الدكتور سليمان الشطي في دراسته [٢] ، فالشاعر لم يتبق له سوى قهوة المعلم كرشة ، وحتى هذه زاحمه فيها الوافد الجديد وطرده منها وأخذ مكانه ! ، انتهى بهذا عصر كامل حاملا معه فنه الكاسد ، وعلى الرغم من أنه حاول جاهدا إثبات وجوده ، والتشبث بمكانه ، فإنه لم يكن بقادر على أن يحفظ مركزه ، فهو يحمل عناصر فنائه في شخصه المتهدم .. ووقوع تنازع البقاء هذا على مرأى ومسمع من أهل الزقاق، وتباين مواقفهم [٣] حوله إنما يكشف أيضا مواقف أهل الزقاق من الصراع الدائر بين مجد الزقاق الغابر والحضارة الوافدة .. هذه المواقف المتباينة لأهل الزقاق بالنسبة لسقوط الشاعر القديم الذي حمل أصالتهم لفترة طويلة إنما هي تمهيد طبعي لما سيحدث في المستقبل من حوادث . فانهزام الشاعر إيذان بانهزام كل من خرج من الزقاق يريد أن ينعم بالجديد الذي يجذبه إلى الخارج " ؛ خارج الزقاق (المكان). إنها نبوءة الفن لما سيحدث في المستقبل ، والفن العظيم هو الذي يستشرف المستقبل ، ويحمل المتلقي على التماهي مع نبوءاته .

(٥) الشيخ درويش الرجل النكرة الذي يمارس حضورا غائبا في عالم

---

[١]) السابق ص : ١٠ .

[٢]) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص : ١٢٢ .

[٣]) سواء الرافضة كالمعلم كرشة صاحب القهوة وصبيه سنقر . أو المتعاطفة معه ليس لبقاء فنه ولكن إشفاقا على حاله ومصدر رزقه كالدكتور بوشي والسيد رضوان الحسيني .

الزقاق: ".. وعلى كثب من المدخل تربع على الأريكة (رجل) في الخمسين يرتدي جلبابا ذا بَنِيقَة [1] موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة ! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامدا كالتمثال ، صامتا كالأموات ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأنه دنيا وحده .. "

يمارس الشيخ درويش حضوره عبر هروبه من الواقع ، إذ لا يربطه بالزقاق غير الإقرار بما يراه المعلم كرشه في مواجهة الشاعر عندما طرده من قهوته أو تهويماته الصوفية التي تغرقه في غيبوبته :

" – آه تغير كل شيء.. أجل كل شيء يا ستي ! كل شيء تغير إلا قلبي فهو بحب آل البيت عامر .. وطامن رأسه ببطء ، وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار ، في حركات أخذت في الضيق رويدا رويدا حتى عاد إلى موضعه من الجمود ، وغرق مرة أخرى في غيبوبة . ولم يلتفت إليه أحد ممن اعتاد أحواله ، إلا الشاعر فقد توجه إليه كالمستغيث وقال له برجاء :

– يا شيخ درويش أيرضيك هذا ؟.

ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة " [2].

هذا هو واقع الشخصية التي يحاول الكاتب أن يدفع به إلى مسرح الأحداث عبر نافذة الاستدعاء من الماضي ، حيث كان في بكارة الشباب حاضرا بكينونته التي كان بإمكانها أن تسهم بفاعلية في ملء الفراغ ، إلا أنه يظل صورة من الآخرين ممن شغلوا أماكنهم على هامش الحياة في الزقاق ،

---

[1]) البنيقة : الزيق يخاط في جيب القميص ، تثبت فيه الأزرار . المعجم الوسيط : بنق.

[2]) زقاق المدق ص : ١٠

" كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرسا في إحدى مدارس الأوقاف ، بل كان مدرس لغة إنجليزية وقد عرف بالاجتهاد والنشاط ، وأسعفه الحظ أيضا فكان رب أسرة سعيدة . ولما أن انضمت مدارس الأوقاف إلى وزارة المعارف ، سويت حالته ككثيرين من زملائه غير ذوي المؤهلات العالية ، فاستحال كاتبا بالأوقاف ، ونَزَل من الدرجة السادسة على الثامنة ، وعدل مرتبه على هذا الأساس ، كان من الطبعي أن يحزن الرجل لمصيره حزنا عميقا، وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة ، يعلنها حينا ، ويكتمها – مقسورا مغلوبا على أمره – أحيانا . ولقد سعى كل مسعى ، وقدم الالتماسات واستشفع الرؤساء ، وشكا الحال وكثرة العيال ، دون جدوى . ثم سلم للنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت . واشتهر أمره في الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى ، عظيم اللجاج والعناد ، سريع التأثر ، ولا يكاد يمضي يوم من حياته دون شجار أو اصطدام ، كبير الاعتداد بنفسه والتحدي للآخرين . وكان إذا شجر بينه وبين آخر خلاف – وكثيرا ما يحدث– تعالى استكبارا ، وخاطب خصمه بالإنجليزية ، فإذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب ، صاح به في ازدراء شديد (تعلم أولا ثم خاطبني !) . وكانت أنباء شجاره وعناده تتصل برؤسائه أولا فأول وكانوا يتسامحون معه ، عطفا عليه من ناحية ، وتحاميا لشره من ناحية أخرى ، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر إلا بعض الإنذارات، وخصم يوم أو يومين ، ولكنه ازداد بكرور الأيام صلفا ، حتى تراءى له يوما أن يحرر خطاباته المصلحية باللغة الإنجليزية ففعل..." [1] .

---

[1]) زقاق المدق ص: ١٥

مما أوغر عليه صدر مديره فكان بالحزم والقسوة مما دفعه لمقابلة وكيل الوزارة الذي باغته بقوله : " إنه رسول الله إليه بكادر جديد " [١].

ختمت حياته بالفصل من عمله وهجر أهله ومعارفه ، ذاهبا إلى دنيا الله كما يسميها ، وطلَّق الحياة إلى حيث الزقاق الذي – إن غاب – افتقده أهله ، " فهو إما ذاهل صامت ، أو مرسل القول كما يحب لا يدري أنَّى يكون موقعه من النفوس . بيد أنه رجل محبوب مبارك ، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا ، ويقولون عنه إنه ولي من أولياء الله الصالحين ، يأتيه الوحي باللغتين العربية والإنجليزية .." [٢] .

هذه الشخصية الوحيدة في عالم الزقاق هي التي مارست عملية ارتداد من الخارج إلى الداخل ، فبداية حياته كانت خارج الزقاق وارتد إلى داخله ، بخلاف عباس الحلو وحميدة اللذين مارسا عملية التمرد على الزقاق كما سنرى ، وكان في خروجهما حتفهما ، فهو مارس الرحيل من الخارج إلى الداخل . نما على أرضية الزقاق ككائن طفيلي إلا أنه " يقف ضميرا موحيا لما يجري وما سيكون ، وكلماته دائما تعني شيئا آخر خارج حدود الكلمات القاصرة . فهو غائب عن الدنيا في الوقت الذي هو في بؤرتها ، يرى الأعماق ، فهو ضمير كاشف لكل ما هو كائن وما سيكون"[٣].

أسرف نجيب محفوظ في التقريرية وهو يقدم هذه الشخصية ، هكذا دون تدخل منها إلا بالقدر اليسير ، وكأن قيمتها لا تكمن إلا في كونها

---

[١]) زقاق المدق ص: ١٦

[٢]) زقاق المدق ص: ١٧

[٣]) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص : ١٤٢ .

تمارس الإنصات ليس غير دون إمكانية لأداء دور ما في الواقع العام !، وبولوجها عالم الزقاق تكورت وتجمدت وانحسرت عنها الحركة ، أو قل : ذهلت هي عن حركة الحياة !! إلا من التطامن والاستلاب ، وإن كان أحد النقاد – الدكتور نبيل راغب – يجد مبررا لتشكيل هذه الشخصية على هذا النحو ، بل ويسحبه على أكثر شخصيات العمل إن لم يكن كلها ، لأن اهتمام الكاتب كان منصبا في المقام الأول على المكان، بوصفه البطل . ومن هنا ، على حد قوله :" كان شكل الزقاق الاجتماعي هو الشكل الفني للرواية ، ولذلك يجب ألا نطبق قواعد المنهج الدرامي على زقاق المدق وإلا غمطناها حقها .. ومن هنا ، كان من المستحسن إخراج مقاييس نقدية جديدة من العمل الفني ذاته حتى لا نفرض عليه أحكاما خارجة عن بنيانه وشكله العام"[١] .

وماذا كان يضير الكاتب لو اتبع المنهج الدرامي في صياغته لشخصياته ؟ ، وإن كنت أرجح أن اللجوء للتقريرية في تشكيل الشخصية ؛ لأن حياة الشخصية في الزقاق كانت متطامنة سلبية ، لا تشارك فيما يجري في الزقاق إلا بتقرير ما يقع ، فكان التقرير هو الأسلوب الذي يحكي شكل الشخصية في عملية البناء .

فالتطامن والسلبية اللتان تميزتا بهما شخصية الشيخ درويش جعلتا نجيب محفوظ يضع عبر شخصيته نقطة النهاية لروايته، وكأنه إيذان بأن رغم انتهاء هذه الملحمة الروائية ، كل شيء عاد لما كان عليه؛ من بطء الحركة ورتابة الحياة ، يلتقط الزقاق أنفاسه ويعود كل شيء إلى أصله .

---

[١]) قضية الشكل عند نجيب محفوظ ، ص : ١١٧ . د نبيل راغب

وهذه كانت مجرد أحداث عابرة ، والخارجون عليه أو المتمردون مجرد أشخاص لن تتوقف حركة الزقاق كثيرا عند محطاتهم !! ولذا نجد الشيخ درويش يشد الستار على النهاية دون أن يحرك ساكنا لديه !! فعلى أثر موت عباس الحلو ، وذهاب محبوبته حميدة إلى المشفى ، جراء إصابتها في المشاجرة التي حدثت بينه بين عساكر الإنجليز ، لا يجد الشيخ ما يعالج به هذه الأحداث إلا أن : " هز منكبيه استهانة ، وقال وعيناه لا تزالان شاخصتين إلى السقف : من مات عشقا ليمت كمدا لا خير في عشق بلا موت ثم وحوح متنهدا واستدرك قائلا :

– يا ست الستات .. يا قاضية الحاجات.. الرحمة..الرحمة يا آل البيت ، والله لأصبرن ما حييت ، أليس لكل شيء نهاية ؟ .. بل لكل شيء نهاية .. ومعناه بالإنجليزية (end) وتهجيتها (e n d) "[1].

(٦) السيد رضوان الحسيني : " كان السيد رضوان الحسيني ذا طلعة مهيبة، تمتد طولا وعرضا ، وتنطوي عباءته الفضفاضة السوداء على جسم ضخم ، يلوح منه وجه كبير أبيض ، مُشْرَب بحمرة ، ذو لحية صهباء، يشع النور من غرة جبينه ، وتقطر صفحته بهاءً ، وسماحة وإيماناً ... وعلى شفتيه ابتسامة تشي بحبه للناس وللدنيا جميعا .. شأن الكريم الفاضل ، يحب الخير ويصنعه ، ويزدان بصنعه رضا وجمالا ، كان يحرص دائما على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل ، أو ينقلب إلى أهله ملوما محسورا .. فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم ". [2]

---

[1]) زقاق المدق، ص : ٢٨٧ .

[2] زقاق المدق . ص : ١٠ .

شخصية " السيد رضوان الحسيني " تقف على الجانب الآخر في حياة الزقاق ، فهو شخصية تدفعنا للإيمان بواقعية هذا العالم الممتلئ بالمتناقضات (الثنائيات المتضادة) ، هو الوجه الآخر لعالم الزقاق وضميره ، هو المعادل الموضوعي للأنماط البشرية الأخرى ؛ نتاج هذا الزقاق ، ومُنتَج حركته وتفاعلاته ، فهو الشجرة الوارفة التي يستظل بها المتعبون في الزقاق . ومن ثم ، هو مساحة البياض أو النور في هذا العالم المترع بالمتناقضات والمتلفع بغلالات من السواد! ".

فالبناء الفني ، للخط الدرامي ، في تصوير الزقاق ، يستدعى وجود هذا النمط ، فهذه الشخصية تصور وجها آخر من وجوه " البطل" الزقاق ، سيما إذا كانت الشخصيات تُستخدم بوصفها أدوات للتعبير عن المواقف داخل الإطار العام للرواية ... فهذا التقابل في عالم الرواية ، كان ضرورة فنية يمليها صدق الواقع الفني في تشكيل الرواية ..

فالسيد الحسيني : " كان وجهه الأبيض الوردي يفيض بِشراً ونوراً ، تحيط به لحيته الصهباء إحاطة الهالة بالقمر ، وكان كل شيء حوله يلوح بالقياس إلى طمأنينته الراسخة قلقاً مضطربا .. وكان نور عينيه صافيًا، نقيًا ينطق بالإيمان والخير والحب والترفع عن الأغراض ..." [١]

يلجأ الروائي نجيب محفوظ إلى توظيف ما يسمى بـ " البعد الداخلي " في بناء لتشكل الرمز الذي يستدعيه لإدارة حركة الصراع في عالم الزقاق . وامتلاك الروائي لأدوات الفن تعينه على بناء شخصياته من الداخل ، حيث تتفاعل وتتماس الشخصية مع العناصر الأخرى من الحدث والزمان والمكان

---

[١]) زقاق المدق ص :٥٣ .

وغيرها ... فيكتشف دلالاتها الجمالية ورؤيتها في معالجة الصراع ، التي كثيرا ما تسهم مع غيرها في بلورة رؤية الأديب... ، وهذا الاكتشاف يأتي عن طريق تماسك الشخصية من الداخل، وعدم تهافتها في الفضاء الروائي، فيشعر المتلقي بحرارة الحياة وعنفوانها ، وتدفقها ، فيقتنع بها حتى ولو يتصور وجودها. فالمكان الذي يصنعه خيال الروائي لا شك ينتج مثل هذ الشخصية التي قلنا أنها تمثل ضمير الزقاق والمعادل الاجتماعي / الروحي للأنماط التي تعيش في الزقاق .

" .. كان السيد على فروة مسبحا ، المجمرة أمامه ، وإبريق الشاي على يمينه . كانت حجرته الخاصة صغيرة أنيقة ، تحدق بأركانها الكنبات ، ويغطي أرضها سجاد شيرازي ، تقوم في وسطها مائدة مستديرة رصت عليها الكتب الصُّفر، ويتدلى فوقها من السقف مصباح غازي كبير ، وكان السيد يرتدي جلبابا رماديا فضفاضا ، وطاقية صوفية سوداء يضيء تحتها وجهه الأبيض المشرب بالحمرة كالبدر المنير ، في هذه الحجرة كان يخلوا إلى نفسه كثيرا ،قارئا أو مسبحا أو متأملا، وفيها كان يجتمع بأصدقائه من العلماء والصوفيين وأئمة الأذكار ..." [1]

فالعناصر المشكلة للأثاث ترسم حدودا للمكان كما يقول الدكتور مصطفى الضبع ([2]) ، وما يذكره الروائي لا يتوقف عند كونها علامات لغوية تمتليء بها صفحات نصه ، ولكنه يجعل لهذه الأغراض وظائف تؤديها للإنسان والمكان ، لكل غرض وظيفته المباشرة الواضحة ، ولكننا حين ننظر إليها

---

[1]) السابق ص :٨٨ .

[2]) استراتيجية المكان ص: ٦٦ ، ٦٧ . سابق .

من الناحية الفنية فإن هذا الغرض يتعدى وظيفته الأولى ، ويكتسب وظيفة أخرى غير التي صنع من أجلها ، فالمسبحة والمجمرة وإبريق الشاي والكنبات والسجاد الشيرازي ، وغيرها ما هي إلا علامات تشغل حيزا من الخيال بقدر ما تشغل حيزا من المكان ... سبقت هذه الأشياء في ظهورها هيكلة المكان الرئيسة ، ووشت بطبيعته ومنحته بعده الجمالي .. كشف تشكيلها عن مجموعة وظائف مزدوجة تقوم بها الأشياء (مكونات الغرفة) ..التي لا تنفصل بحال عن الإنسان ، ترسم جغرافية أمكنته ، وتمنحه درجة من درجات القيمة الاجتماعية إلى جانب أنها عناصر محركة للأحداث ، وصانعة لها ومعبرة عن حركيتها ، مما يجعلها تقوم بتوطيد العلاقة بين المتلقي والنص ، مما يوسع خيال المتلقي ، الذي قطعا سيتحرك للسؤال عن جدوى هذه الأشياء ".[1]

برغم هذه الهالات التي أضفاها الوصف على هذه الشخصية إلا أنها لم تفلت من عنفوان المكان وطغيان بيئته ، فلم يكد يغادر تلك الغلالة السوداء حتى يقع في براثنها !!، فهو كشأن كل البشر الذين يطمحون نحو شاطئ الأمان بقارب الحياة / الإيمان :

" كانت حياته مرتعا للخيبة والألم ، فانتهى عهد طلبه العلم بالأزهر إلى الفشل ، وقطع بين أروقته شوطا طويلا من عمره دون أن يظفر بالعالمية ، وابتلي – إلى ذلك – بفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الأطفال ، ذاق مرارة الخيبة حتى أترع قلبه باليأس أو كاد ، وتجرع غصص الألم حتى تخايل لعينيه شبح الجزع والبرم ، وانطوى على نفسه طويلا في

---

[1]) استراتيجية المكان ص : ٦٨ ، ٦٩ . باختصار و تصرف .

ظلمة غاشية . ومن دجنة الأحزان أخرجه الإيمان إلى نور الحب .. وطأ أحزان الدنيا بنعليه ، وطار بقلبه إلى السماء!! " [١]

فالحسيني لم يكن قديسا ملهما أو معصوما ، لكنه بشر ككل البشر يخطئ ويصيب ، ينجح ويترصده الفشل ، حتى ولو كان قدرا فهو به راض !! فشخصيات الزقاق في الرواية ليست نماذج مقولبة أو دمًى خشبية ؛ بل هي شخصيات حية وقادرة على إثارة القارئ وجذب انتباهه وتعاطفه ؛ إنها شخصيات ذات صفات منفردة ، شخصيات من لحم ودم ، وهذا ما يجعلها ربما غير مألوفة خارج عالم الزقاق .

نجيب محفوظ يمارس حضوره في هذا المقطع بتقريرية فجة ، تجعله يتأرجح بين المتناقضات ولم يرس على بر!! ، فمرة يفلت الحسيني من ربقة الزقاق ، وسرعان ما يعيده إليه ، لم يوظف غير الوصف عبر عينه هو ، وليس أعين الشخصيات الأخرى حتى يستقيم خط الشخصية ، وتبدو أرجحاتها طبعية ومقنعة ، وكأن الكاتب يعز عليه أن يتفلت من قبضة المكان شخص واحد ؛ يجعل من الحسيني(راسبوتين) الزقاق ! فهو عقل وضمير وملاذ كل من فيه ، لكن للأسف دون جدوى !! كما قالوا تسمع جعجعة ولا ترى طحنا !! فالرجل يُستدعى في كل ملمة ، ويستشار في كل أمر، ولكن لا يؤبه له !! فلا يؤخذ برأيه ، ولا تسمع له نصيحة !!. وربما هذا ما دفع بعض الكتاب والنقاد بأن يتهموا نجيب محفوظ[٢] بفرض التشاؤم في روايته هذه !

---

[١]) زقاق المدق ص : ١٠ ، ١١ .

[٢]) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص : ١٤١، فيما نقله عن مجلة روزا اليوسف في عددها الصادر في : ١٤ /١٠ /١٩٥٧م . القاهرة .

ما جعله يبرر ذلك :" بأن الرواية كتبت في فترة كان يغلب على حياتنا فيها الشقاء، وما يشبه اليأس ، فاستدعى الصدق إخراج هذه الصورة !! " .

والسيد رضوان الحسيني هو الوحيد الذي خرج من الزقاق وعاد إليه سالما في رحلته المقدسة لأداء فريضة الحج ، وذلك لأن خروجه لم يكن تمردا أو جفاء للزقاق وعالمه ،ولكنها هجرة لرحاب الإيمان . ومن ثم لأداء فريضة وركن يكتمل به دين مثله ، فلم يغدر به المكان . وحسبنا من رحابة اليقين في فضاء الإيمان من تلك الترتيلة التي صاغها الأديب نجيب محفوظ وكأنه يعتصر ماء قلبه هو لا السيد الحسيني ، حيث يفيض الشوق ، وتتقوض مشاعر الحرمان لمثل هذا الخروج :

وكان أحد الأصفياء قد قال له :

- سفر سعيد وعود حميد ...

فأشرقت في وجه السيد ابتسامة وضاءة كستة جمالا على جمال ، وقال بصوته الحنان :

– أخي لا تُذكِّرني بالعود . إن من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر الحنين إلى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويخيب دعاءه وينفد سعادته . سأذكر العودة حقا إذا فصلت عن مهبط الوحي في طريقي إلى مصر ، وأعني بها العودة إلى الحج مرة ثانية إذا أذن الرحمن وأعان . من لي بمن يقرني ما تبقى من العمر في البقاع الطاهرة ، أمسى وأصبح فلا أرى أرضا تطامنت يوما للمس أقدام الرسول ، وهواء خفقت بتضاعيفه أجنحة الملائكة ، ومغاني أصغت للوحي الكريم يهبط من السماء إلى الأرض فيرتفع بأهل الأرض إلى السماء ، هنالك لا يطوف بالخيال إلا ذكريات الخلود ، ولا يخفق الفؤاد إلا بحب الله ، هنالك الدواء

والشفاء . أخي .. أموت شوقا إلى استطلاع أفق مكة ، واستجلاء سماواتها ، والإنصات إلى همس الزمان بأركانها ، والسير في مناكبها ، والانزواء في معابدها ، وإرواء الغلة من زمزمها ، واستقبال الطريق الذي مهده الرسول بهجرته فتبعته الأقوام من ثلثمائة وألف عام ولا يزالون ، وتلوج الفؤاد بزيارة القبر النبوي والصلاة في الروضة الشريفة ، وإن بقلبي من مكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثه ، ولدي من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصوره . أراني يا إخوان ضاربا في شعاب مكة تاليا الآيات كما أنزلت أول مرة . كأنما أسمع درسا للذات العلية ، أي سرور !.. وأراني ساجدا في الروضة متخيلا الوجه الحبيب كما يتراءى في المنام ، أي سعادة !..وأراني متخشعا لقاء المقام مستغفرا فأي طمأنينة !.. وأراني واردا زمزم أبل جوارح الشوق بندى الشفاعة فأي سلام !.. أخي لا تذكرني بالعودة وادع الله معي أن يحقق لي المنى..."[١]

(٧) زيطة (صانع العاهات) : يقيم في خرابة مواجهة لفرن المعلمة حسنية :" .. وفي الجدار المواجه للمدخل يرى باب خشبي قصير يفتح على خرابة ، تسطع فيها رائحة تراب وقذارة ، إذ ليس بها إلا كوة في الجدار المواجه للمدخل تطل على فناء بيت قديم . وعلى بعد ذراع من الكوة ، وعلى رف ممتد ، مصباح يشتعل ، يلقي على المكان ضوءا خفيفا يفضح أرضه المتربة المغطاة بأنواع لا يحصيها العد من القاذورات المتنوعة ، كأنها مزبلة . أما الرف الذي يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وأدوات مختلفة وأربطة كثيرة ، كأنه رف صيدلي لولا قذارته

---

[١]) زقاق المدق ص: ٢٧٠ .

النـادرة . وعلـى الأرض – تحـت الكـوة مباشـرة – كـان يوجـد شـيء مكـوم لا يفترق عن أرض المكان قذارة ولونا ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحق – علـى رغـم كـل شـيء – فـي لقـب إنسـان ؟ ذلـك هـو زيطـة مستأجر هذه الخرابة من المعلمة حسنية الفرانة . وحسبه أن يرى مرة واحدة كي لا ينسى بعد ذلك أبدا ، لبساطته المتناهية ، فهو جسد نحيل أسود وجلباب أسود ، سواد فوقه سواد ، لولا فرجتان يلمع فيهما بياض مخيف هما العينان .. ولم يكن على ذلك زيطة زنجيا بل إنه مصري أسمر اللون في الأصل ، ولكن القذارة الملبدة بعرق العمر كونت على جثته سوداء . كذلك جلبابه لم يكن في البدء أسود ، ولكن السواد مصير كل شيء في هذه الخرابة وهو لا يكاد يمت بسبب للزقاق الذي يعيش فيه ، فلا يزور ولا يزار ، لا نفع في أحد له ، اللهم إلا الدكتور بوشي ، والآباء الذي يستعينون بصورته على تخويف أطفالهم .. وأما صناعته فمعروفة لدى الجميع ، وهي صناعة العاهات .. عاهات صناعية من نوع جديد ، يقصده الراغبون في احتراف الشحاذة ... كان يرقص طربا إذا قرع مسمعيه صوات على ميت ، ويقول وكأنه يخاطب الميت : جاء دورك لتذوق التراب الذي يؤذيك لونه ورائحته على جسدي" [1].

شخصية زيطة من الشخصيات التي ربما نقابلها في الحياة لكن لها فرادتها وتميزها ، هي أنموذج لا يتكرر كثيرا . ومن هنا ، تكتسب الشخصية حضورها وفرادتها في عالم الزقاق ، يتعدى حضورها عالم الزقاق ، وتتجاوز كينونته عالم الواقع ، فتصبح لها دلالاتها التي تفرض هذا التميز : إنه شيطان أسود !، حفر لنفسه مكانا في ذاكرتنا ، من لحم ودم ، برغم قذارته

---

[1]) زقاق المدق ص :٥٥ ، ٥٦ .

ورائحته النتنة ، يتجنبه الجميع حتى حسنية الفرانة التي تنعته بأنه شيطان :

- يا لك من شيطان ! لسان شيطان، وصورة شيطان " [١]

وبرغم من هذا يسيل لعابه على المعلمة حسنية عندما تخلو بزوجها الفران جعدة في المساء تمازحه وتباسطه السمر ، فكان يتلصص عليهما من ثقب الباب فيأكله الحقد ويحسد زوجها جعدة القرد ! الذي حباه الله به من زوج " كاملة الجسم ، أو على حد تعبيره : امرأة بقري !!" [٢] .

فزيطة ؛ صانع العاهات ، التي قد يعجز عنها أعظم أطباء البلد على حد قوله ، الشيطان الفخور المعتد بنفسه ، ملك في دولة كبيرة رعاياها من الشحاذين في منطقة الحسين ، هو بطبيعته الأسطورية هذه ملح الخلطة التي يصنعها نجيب محفوظ لعالم الزقاق ، وبدونها ينقص الصورة الجزء الأكثر حرافة !! . ومن ثم ، فهو الشخصية التي ترمز لامتدادات الزقاق خارج جدرانه ، فصنعته للعاهات وذيوع صيته في عالم الشحاذين تمد أسباب الاتصال بين الزقاق والحارات والأحياء المجاورة التي يرفدها زيطة بالشحاذين ، ممن يصنع لهم العاهات ويطلقهم في القاهرة. إنه " مسيح القرن العشرين، أو المسيح المقلوب –على حد تعبير الناقد توفيق حنا – جاء ليرد للأصحاء المساكين عاهاتهم ، حتى يتمكنوا من الحياة .. وحتى يستمروا أحياء .. زيطة صورة دقيقة للواقعية المقلوبة حيث يُدخِل الأصحاء للحياة من باب خلفي ، باب الشحاذة والتسول ، والعاهة كانت وسيلته للعيش والاحتيال على الحياة والأحياء ، إنها معالجة لواقع مهترئ يطفح بالعاهات الإنسانية

---

[١]) زقاق المدق ص:١٢٩ .

[٢]) السابق ص : ٥٧ .

والاجتماعية وبأسلوب للأسف أكثر اهتراء وسلبية " .[١]

(٨) الدكتور بوشي : " كان الدكتور يرتدي جلبابا وطاقية وقبقابا ! هو دكتور أسنان ، إلا أنه أخذ فنه من الحياة بغير حاجة إلى ممارسة الطب أو أية مدرسة أخرى . اشتغل في بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان في الجمالية ، ففقه فنه بحذق وبرع فيه ! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة وإن كان يفضل الخلع غالبا كأحسن علاج . وربما كان خلع الضرس في عيادته المتنقلة أليما موجعا ، إلا أنه رخيص؛ بقرش للفقراء وقرشين للأغنياء ، فإذا حدث نزيف – وليس هذا بالأمر النادر – اعتبر عادة من عند الله ؛ وترك منعه أيضا لله ! . وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما يأخذ لقبه من مرضاه ". [٢]

شخصية (رجل / نكرة) طفيلية لم تتماس أو تشبك على مسرح المكان على نحو يفسح لها مكانا لائقا ، تتفاعل وتنمو عبره ، ولذلك بدت باهتة ؛ لا لون له ولا سمة حتى يتحسس واقعه بحذر فيطل عبر نافذة ضئيلة تزيد في سطحيته وبلاهته ، عندما يتجاهل صبي القهوة سنقر طلب القهوة من الشاعر فما كان منه إلا أن يتدخل ، بلهجة الآمر :

– هاتِ قهوة الشاعر يا ولد .

وحدج الشاعر القادم بنظرة امتنان ، وقال بلهجة لم تخل من أسى :

---

[١]) زقاق المدق (مقال) ص: ٤٤٠/ جزء أول– توفيق حنا – منشور ضمن كتاب الرجل والقمة : بحوث ودراسات تصنيف فاضل الأسود – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٩م – القاهرة .

[٢]) زقاق المدق ، ص:٨ .

– شكرا لله يا دكتور بوشي .

فسلم الدكتور عليه وجلس قريبا منه ."

إذ تتداعي عملية الوصف عبر تقنية السرد التابع التي تعنى بتمثيل الواقع في ثوب الخيال ؛ حيث يتطلع نجيب محفوظ إلى رسم الصورة الفنية في واقعها الأدبي لا التاريخي ، الإبداعي لا الواقعي ، فيستأنف حكيه عبر الزمن الماضي (ارتداد) . والروائي هنا غير معني بكتابة تاريخ الزقاق بقدر ما هو معني برصد انعكاساته على بنيات الشخصيات ورصد حركتها في آفاق فضائه الذي يتسع لإنتاج رواية مثل زقاق المدق.

(البوشي) كان نمطا مكملا لشخصية (زيطة) صانع العاهات ، فكلاهما مكمل للآخر ، إذ يقوم بوشي بتوريد الزبائن الراغبين في العمل بالشحاذة ، ويقوم (زيطة) بعمل العاهات لهم !! فكان كل منهما وجها لشخصية الآخر ، أو انعكاسا لتصوره الإنساني ، وظلا يتساندان في هذا الفضاء حتى قُبض عليهما متلبسين وهما يتشاركان في سرقة طاقم الأسنان الذهبي لبائع الدقيق ، الذي وافته المنية ودفنه أهله ومعه طاقم أسنانه الذهبية باهظ الثمن ، وقبض عليهما متلبسين وسجنا على إثر جريمتهما [1]. فكان البوشي امتدادا لزيطة ، وتعميقا لشخصيته ، ولقيا مصيرا واحدا في عالم الزقاق .

*** الشخصيات من النوع الثاني :**

وهم الذين يتطلعون لملاذٍّ الحياة المادية التي تعيشها القاهرة الجديدة خارج الزقاق ، وهؤلاء يتفلتون من الزقاق ، ويتحركون خارجه حيث الحركة والضجيج والحياة الملونة في سرعة إلى الكارثة والمأساة من أمثال حميدة ،

---

[1]) راجع الفصل السابع والعشرين والثامن والعشرين من رواية : زقاق المدق .

وكذلك الذين يرضون بالحياة في الزقاق قانعين بمعاناة حياتهم بخيرها وشرها ، فإذا زاد طموح أحدهم وتطلعه ، كان مؤشرا لكارثة تصيبه ، وترده إلى صوابه أمثال عباس الحلو، الذي كان يتأرجح بين حالات الرضا بما قسم وتطلعاته لإرضاء محبوبته (حميدة) التي تدفعه شهواتها لمصيره المأساوي.

هذه الشخصيات هي الأكثر حيوية في عالم الرواية / الزقاق ، تتجلى عبر ممارساتها عملية التحول في الحياة ، لتشكل لحظة التمرد / الانتصار على المكان ، ومدى نجاحها في تحقيق هذه الرغبة أو استعصائها على التحقيق ، والقدرة على الإفلات من قبضته ، وهما محوَرا هذا العمل (زقاق المدق) – حميدة وعباس الحلو– ومن خلال بنائهما وحركتهما في الفضاء العام ، ورحلتهما في آفاق عالمه الروائي ، بوصفهما من أبرز الشخصيات في الزقاق ، وتجربة الارتحال عن الزقاق وما يترتب عليها ، والمصير الذي يتوعدهما من الإقدام على تلك المغامرة . كل ذلك يشكل " رؤية الكاتب نجيب محفوظ في الزقاق ، التي تكمن في حرصه وإصراره على تأكيد عزلة الزقاق عن العالم الخارجي في مدخل روايته وبداية حركتها ، حتى في هندسة بنائه: "... إنه شبه محاصر... كالمصيدة "[1]، وإن كان لم ينف تسرب بعض مظاهر الحياة الجديدة من خارج الزقاق إلى داخله ، ولعل هذه الحركة المتأرجحة لهذه المظاهر هي التي ستشكل حركة الشخصيات وتدفع بها أو تغريها بالتفلت من قبضة المكان الصارمة ، والتمرد على واقع الزقاق ، وإن

---

[1]) زقاق المدق ، ص :٥ . . والكلام للأستاذ الدكتور عبد المحسن طه بدر في دراسته : الرؤية والأداة : نجيب محفوظ ص: ٣٦٦ وما بعدها بتصرف – دار المعارف – ثالثة – دت – القاهرة .

كان الروائي يصر على أن كل ذلك لم يكن سوى زوبعة في فنجان ، حتى أن الأحداث الجسام التي ألمَّت بمصر في الحرب العالمية الثانية ، وفي القلب منها القاهرة العاصمة ، لم تصنع تغييرا في عالم الزقاق يذكر، فيسترد الزقاق عافيته ، ويرسل بشباكه على أبنيته وأفنيته، ومن يتحرك على مسرحه من الشخوص ، ومن دفعهم تطلعهم أو طموحهم أو حتى تمردهم ، لم يجدوا غير السقوط أو العودة إليه أو الموت خارج أسواره . ومن ثم ، وجدنا المحطة الأخيرة في الرواية تعيدنا إلى واقع الزقاق الأول وكأن شيئا لم يقع أو لم يحدث !!

" وانداحت هذه الفقاعة أيضا كسوابقها ، واستوصى المدق بفضيلته الخالدة في النسيان وعدم الاكتراث ، وظل كدأبه يبكي صباحا – إذا عرض له البكاء – ويقهقه ضاحكا عند المساء ، وفيما بين هذا وذاك تصر[١] الأبواب والنوافذ وهي تفتح ثم تصر كرة أخرى وهي تغلق . ولم يحدث في هذه الفترة أمر ذو بال ".[٢]

١) حميدة البطولة النسائية في هذه الرواية ، والتي يمكن أن نختصر الحضور الأنثوي على كثرته[٣] في الرواية في شخصيتها ، فهي مثال لكل

---

[١]) تصر : من الصرير ، وهو صوت الأبواب الثقيلة عن الفتح أو الإغلاق .

[٢]) زقاق المدق ص: ٢٨٦ .

[٣]) أمثال سنية عفيفي صاحبة البيت التي تسكن فيه أم حميدة وابتها ، وأم حميدة ، وحسنية الفرأنة زوج الفران جعدة والتي تجحظ عينا زيطة صانع العاهات كلما رآهما من خلف باب الخرابة يتسامران ويتهامسان ، وزوج المعلم كرشة التي تأكلها الغيرة من سلوك زوجها الشاذ المنحرف وبنات المشغل اليهوديات .

الساكنات لهذا الزقاق ، " الصورة المصغرة لعالم تجمع مرافقه الأساسية : الفرن والمزبلة والوكالة والحلواني ودكان الحلاق والمسكن والقهوة التي يسمرون فيها بعد المغرب ، كما تتسع للإجرام المختلط بالفقر ....، كلهن صناعة الزقاق ، خلت صورة النساء في تلك المرحلة (الواقعية) من تلك الرومانسية ، التي كست بطلاته في المرحلة التاريخية ، ... فمن حميدة إلى المعلمة حسنية الفرانة يظهرن جميعا على حقيقتهن : المعروفة واللحيمة الجسيمة ، الشابة والنصف ، المشاكسة والمغلوبة على أمرها ؛ كلهن شخصيات مصرية واقعية .. فكان لنظرة نجيب محفوظ الواقعية أثر بالغ في تحديد الصورة ، التي يقدم بها هذه الشخصيات في حيدة تنأى بنا عن الجو العاطفي والرومانسي ، الذي كان كثير من كتاب جيله يغلفون به الشخصيات الطريفة غير المألوفة ، وشخصيات أبناء البلد والفقراء عموما ، كما تنأى عن نغمة التعجب والفرجة التي تتكشف في أعمال أخرى . ولعل شخصية حميدة كما تقول الناقدة فاطمة موسى : خير مثال لذلك ، خاصة أنها تنطوي على جميع مقومات حكاية البطلة الفقيرة الجميلة ، التي تقع في براثن ذئب بشري التي أغرم بها كتاب كثيرون " [1] .

" ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها . كانت تمشط شعرها الأسود تفوح منه رائحة الكيروسين . فنظرت أم حميدة إلى الشعر الفاحم اللامع تكاد تجاوز ذؤاباته المسترسلة ركبتي الفتاة ، وقالت بأسف :

- وا حسرتاه كيف تدعين القمل يرعى هذا الشعر الجميل !
- فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف ، ولاحت فيهما نظرة حادة

---

[1]) نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية ص : ٧٧، ٧٨ بتصرف .

صارمة ، وقالت الفتاة بحدة :

- قمل ؟! والنبي ما وجد المشط إلا قملتين اثنتين !
- أنسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين قملة ؟
- فقالت بغير مبالاة :
- كان مضى على رأسي شهران بلا غسيل ..

ثم اشتد ساعدها في التمشيط وهي تجلس جنب أمها . كانت في العشرين ، متوسطة القامة ، رشيقة القوام ، نحاسية البشرة ، يميل وجهها للطول ، في نقاء ورواء ، وأميز ما يميزها عينان سوداوان جميلتان ، لهما حور بديع فاتن ، ولكنها إذا أطبقت شفتيها الرقيقتين وحدت بصرها تلبستها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها ! وقد كان غضبها دائما مما لا يستهان به حتى في زقاق المدق نفسه . وأمها على ما اشتهرت به من القوة تتحاماها ما استطاعت . قالت لها يوما وهما تتسابان :"لن يلم الله شعثك برجل ، فأي رجل يرضى بأن يضم إلى صدره جمرة موقدة ! ". وكانت تقول في مرات أخرى : إن جنونا لا شك فيه ينتاب ابنتها حين الغضب ، وسمتها لذلك الخمسين باسم الرياح المعروفة . ومع ذلك كانت تحبها كثيرا وإن كانت في الحقيقة أمها بالتبني . كانت الأم الحقيقية شريكة لها في الاتجار بالمفتقة والموغات ، ثم شاطرتها شقتها بالزقاق في ظروف سيئة ، وأخيرا ماتت بين يديها تاركة طفلتها في سن الرضاع ، فتبنتها أم حميدة ، وعهدت بها إلى زوج المعلم كرشة القهوجي فأرضعتها مع ابنها حسين كرشة فهي أخته بالرضاعة .

مضت تمشط شعرها الفاحم منتظرة كالعادة أن تعلق أمها على الزيارة والزائرة ، ولما طال الصمت قالت الفتاة :

– طالت الزيارة ، فيم كنتما تتحدثان ؟

فضحكت أمها في سخرية وتمتمت ك

خمني !

فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامتها :

– طلبت رفع الإيجار.

لو فعلت لخرجت محمولة على أيدي رجال الإسعاف ، ولكنها طلبت خفضه؟

فصاحت حميدة :

– هل جنت ؟

– أجل جنت ، ولكن خمني ..

– فنفخت الفتاة وهي تقول :

– أتعبني !

– فأرعشت المرأة حاجبيها وقالت وهي تغمز بعينها :

– صاحبتك تروم الزواج !

– فتولت الفتاة الدهشة وقالت :

– الزواج !

– أجل . وتريد شابا . أسفى عليك من شابة عاثرة الحظ لا تجد من يطلب يدها !

– فحدجتها الفتاة بنظرة شزراء وقالت وهي تضفر شعرها :

– بل أجد كثيرين ، ولكنك خاطبة فاشلة تريدين أن تداري فشلك . وماذا بي مما يعيب ؟ ولكنك

كما قلت امرأة فاشلة ، يصدق عليك المثل القائل " باب النجار مخلع ".

– فابتسمت أم حميدة قائلة :

– إذا تزوجت الست سنية عفيفي فلا يصح لامرأة أن تيأس ..

– ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة :

– لست أجري وراء الزواج ، ولكنه يجري ورائي أنا ، وسأنبذه كثيرا ..

– طبعا ! أميرة بنت أمراء !

– فتغاضت الفتاة على سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة :

– أفي هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار ؟

– ولم تكن الأم في الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار، ولا تشك في جمالها ، ولكنها كانت

كثيرا ما تثور بعجبها وغرورها فقالت باستياء :

– لا تسلقي الزقاق بلسانك ، إن أهله سادة الدنيا !

– سادة دنياك أنت . كلهم كعدمهم ، اللهم إلا واحدا به رمق جعلتموه أخي !

– وكانت تعني حسين كرشة أخاها بالرضاعة ، فهال أمها الأمر وقالت بلهجة انتقاد واستياء :

– كيف تقولين هذا ؟ ما جعلناه أخا ، وما نملك أن نصنع أخا و لا أختا ، ولكنه أخوك بالرضاعة كما أمر الله ...

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة :

– ألا يجوز أن يكون قد رضع من ثدي ورضعت أنا من الآخر ؟

فلكمتها أمها في ظهرها وصاحت بها :

– قاتلك الله ...

فغمغمت الفتاة بازدراء :

– زقاق العدم !.

– أنت تستحقين موظفا قد الدنيا!

– فتساءلت بتحد :

– هل الموظف إله ؟

– فتنهدت الأم قائلة :

– آه لو تخففين من غلوائك ..!

فقلدت لهجة أمها قائلة :

– آه لو تنصفين ولو مرة في العمر!

– آكلة شاربة ثم لا تشكرين . أتذكرين كيف أطلقت على لسانك الطويل بسبب جلباب !.

– فقالت حميدة بدهشة :

– وهل الجلباب شيء يهون ؟!.. ما قيمة هذه الدنيا بغير الملابس الجديدة ؟! ألا ترين أن الأولى

بالفتاة التي لا تجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية ؟!

– ثم امتلأ صوتها أسفا وهي تقول مستدركة :

– آه لو رأيت بنات المشغل ! آه لو رأيت اليهوديات العاملات ! كلهن يرفلن في الثياب الجميلة .

أجل ما قيمة الدنيا إذا لم نرتدِ ما نحب ؟!

– فقالت الأم باستياء :

– أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك ، وهيهات أن يهدأ لك بال..

– فلم تعبأ قولها وكانت انتهت من تضفير شعرها ، فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة ، ثبتها على

مسند الكنبة ، ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها ، ثم غمغمت بلهجة تنم عن الإعجاب :

– آه يا خسارتك يا حميدة ! لماذا توجدين في هذا الزقاق ؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميز بين التبر والتراب ؟!.

– ثم دلفت من النافذة الوحيدة في الحجرة التي تطل على الزقاق ، ومدت يديها إلى مصراعيها المفتوحين وجذبتهما حتى لم يعد يفرج بينهما إلا مقدار قيراطين من الفراغ ، وارتفقت النافذة ملقية ببصرها إلى الزقاق ، متنقلة به من مكان إلى مكان ، قائلة وكأنما تخاطب نفسها في سخرية :

– مرحبا يا زقاق الهنا والسعادة . دمت ودام أهلك الأجلاء . يا لحسن هذا المنظر ، ويا لجمال هؤلاء الناس . ماذا أرى ؟! هذه حسنية الفرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكيبة عينا على الأرغفة وعينا على جعدة زوجها ، والرجل يشتغل مخافة أن تنهال عليه لكماتها وركلاتها . وهذا المعلم كرشة القهوجي متطامن الرأس كالنائم وما هو بالنائم . وعم كامل يغط في نومه ، والذباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب . آه . وهذا عباس الحلو يسترق النظر إلى النافذة في جمال ودلال ، ولعله لا يشك في أن هذه النظرة سترميني عند قدمه أسيرة لهواه ، أدركوني يا هوه قبل التلف .

– أما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة ، رفع عينيه يا أماه وغضهما، ثم رفعهما ثانية ، .. قلنا الأولى مصادفة ، والثانية يا سليم بك ؟! رباه هذه نظرة ثالثة !. ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء ؟!.. مصادفة كل يوم في مثل هذه الساعة ؟! ليتك لم تكن زوجا وأبا إذا لبادلتك نظرة بنظرة ، ولقلت لك أهلا وسهلا ومرحبا . هذا كل شيء ، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقمل ؟! أوه .. ها هو ذا الشيخ درويش قادما يضرب الأرض بقبقابه .. وهنا قاطعتها أمها في سخرية :

– ما أحق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك !

فلم تلتفت إليها ، ورقصت لها عجيزتها وهي تقول :

– يا له من رجل مقتدر ، يقول إنه أنفق في حب السيدة زينب مائة ألف ، فهل يبخل بعشرة آلاف ؟!

ثم تراجعت فجأة كأنها ملت موقفها ، وعادت إلى المرآة ملقية إليها نظرا فاحصا ، وتنهدت وهي تقول :

– يا خسارتك يا حميدة .." [1] .

فإلى جانب ما صنعه نجيب محفوظ من مسوغات ضاغطة على حميدة ؛ سواء ما كان منزرعا في ذاتها المتمردة والطامحة ، أو ما كان مُؤلِّبًا وطاردا من الجو العام في الزقاق ، فكل ما في حياتها / عالمها يرسخ صورة مثيرة للنفور ، تدفع نحو كراهية الزقاق بمن فيه . ومن ثم ، لم تجد في هذا العالم من يستحقها أو باستطاعته الظفر بها !! لذا فهي دائبة السعي للخروج من هذا المكان الخانق " .. كل ما في الزقاق يوحي بالضيق الذي يمتد حتى إلى منزلها الذي تعيش فيه ، كل ذلك جعلها تشعر بالاغتراب المكاني ؛ حيث لا والِدَين تعيش في كنفهما ، ولا بيئة مهيأة لأن تطرح ولو في المستقبل أملا في حياة كريمة !!، فغدا مُقفرًا من كل أمل أو رغيبة ، تهجس بها نفسها ، فتدفعها كل هذه الشواهد والأمارات للخروج والبحث عن واقع خارج جدران هذا الفضاء ، فيبرر الكاتب خروجها كل عصر خارج الزقاق نحو شارع الموسكي ، حيث المتاجر والمحال الممتلئة ببضائع زاهية الألوان ، تسلب الفتاة لبها ، قبل أن تسرق منها التفاتات عيونها حيث الملابس الزاهية والحلي والمجوهرات غالية الثمن ، وصويحباتها البنات اللائي يعملن

---

[1]) زقاق المدق ص :٢٥: ٣٠ وما بعدها .

في هذه المحال ، ممن تغير حالهن من المصريات أو بنات اليهود ممن يلبسن الثياب المزركشة القِصَار !!

استجاب لرغبة من في الزقاق ورضيت بخطبة من يحبها عباس الحلو جارها في سكنى الزقاق وهو ليس بأفضل ممن فيه ، ولم يكن هو فارس أحلامها الذي تنتظره فتاة طامحة مثلها ، تعرف ما يضمه ثوبها المتواضع من كنوز، لا يقوى على فض مغاليقها غير ذوي اليسار والجاه والسلطان!!

يوظف الكاتب العديد من تقنيات الإبداع في بناء شخصية حميدة كالحوار المباشر بينها وبين أمها ، أو الوصف التقريري الذي يحكيه الراوية وهو يقدم حميدة " ..كانت في العشرين ، متوسطة القامة ، رشيقة القوام ، نحاسية البشرة ، يميل وجهها للطول ، في نقاء ورواء ، وأميز ما يميزها عينان سوداوان جميلتان ، لهما حور بديع فاتن ،... " ثم المناجاة أو حوار النفس الذي يعبر عن دواخلها." آه يا خسارتك يا حميدة ! لماذا توجدين في هذا الزقاق ؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميز بين التبر والتراب ؟!. .. فهذه التقنيات الإبداعية أسهمت في تقديم شخصية حميدة الحية الحيوية المتفاعلة والمتشابكة تقريبا مع كل شخصيات الزقاق ،تحمل في داخلها طاقة من العداء والكراهية والحقد والاحتقار لكل من في الزقاق ومعهم زقاق العدم هذا !! تتشكل بينها وبين عالم الزقاق بمن فيه جميعا صراعات متعددة ومتنوعة ، تسهم في إبراز جوانب شخصيتها المتعددة الوجوه تكشف عن طاقات الثراء الفني ودلالاته الجمالية في الفضاء الرواية .

تتقاطع شخصية (حميدة) ؛ الأولى والأهم [1]في الزقاق التي تملك القدرة على تحريك الأحداث والدفع بها نحو الأمام شخصية الحلاق ابن الزقاق ؛ عباس الحلو :

(٢) عباس الحلو (الحلاق) : " أما صالون الحلو فدكان صغير ، يعد في الزقاق أنيقا ، ذو مرآة ومقعد غير أدوات الفن . وصاحبه شاب متوسط القامة ، ميال للبدانة ، بيضاوي الوجه ، بارز العينين ، ذو شعر مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته ، يرتدي بدلة ، ولا يفوته لبس المريلة اقتداء بكبار الأسطوات " [٢] .

فأناقة الحلو هي من أناقة الدكان / المكان ، ولعل هذه الأناقة وما يتمتع به من وسامة (الحلو !!) ورغبته في الظفر بحميدة زوجا له ، يدفعانه يوما إلى التمرد على هذا الواقع ، الذي سيدفعه بالضرورة إلى مصير مشئوم .. الكاتب جعل شخصية الحلو في جوار عم كامل ؛ المتقابلين في دكانيهما ، المتجاورين في فضاء الزقاق حتى يكمل أحدهما دور الآخر، فعم كامل صديق عباس الحلو ، وشريكه في الشقة والمعيشة، وبينهما من المحبة وفارق السن " ما يجعل عم كامل يقوم في الرواية مقام الآب

---

[1]) لعل ثراء شخصية حميدة وغنائها دفعا المخرج القدير حسن الإمام بأن يصنع فيلما عن رواية زقاق المدق يتبنى خطه الدرامي شخصية حميدة وتحولاتها في التشكيل الفني لفيلمه ولذلك ينتهي الفيلم بموتها هي وليس غيرها .

[2]) زقاق المدق ص: ٦ .

لعباس"[١] . فهما – ككل شخصيات الزقاق – " امتداد لتاريخ الزقاق وواقعه، وهما مرتبطان بهذا المكان ارتباطا يجعلهما ؛ عم كامل والدكان شيء واحد يُريان معا ، وعباس الحلو وصالونه مرتبطان تماما " [٢] .

تعددت محاولات الحلو في خطب ود حميدة إلا أنها كانت تتدلل عليه وتصده ، حتى راودتها أحلامها وأقنعت نفسها بالتجربة معه ، وهي لن تخسر شيئا سيما إذا كان صادق الحب وهو ربما أفضل من في الزقاق سيما بعد أن أفسد أمها عليها الطمع في زينة شباب الزقاق وجعلته أخا لها !! قبلت بوعد الخطبة على أن يغادر هو للعمل في معسكرات الإنجليز(الأورنس) كما وعدها ، فذهب يسترضيها وينثر تحت قدميها آمالا وأحلاما في حياة مترفة حتى ولو كانت خارج الزقاق كما تطمح هي ، فذهب يستجديها دعوة تطمئنه باقتناعها به خطيبا، فغمغم معاتبا بعد أن واجهت كل إلحاحه بالصمت :

– ألا تريدين أن تدعي لي ؟

فقالت بصوت خافت وقع من أذنيه موقعا جميلا وإن كان صوتها نقطة ضعف في جمالها :

– الله يوفق خطاك .

فتنهد مسرورا وقال :

– آمين . استجب لها يارب . ستبتسم لنا الدنيا بإذن الله . ارضي أنتِ عليَّ

---

[١]) نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية ص: ٨٥ . د . فاطمة موسى – الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) – ١٩٩٩م – القاهرة .

[٢]) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ ص : ١٩٩ .

ترضى الدنيا جميعا.. أنا لا أسألك شيئا إلا الرضا " [١] .

جاهدت حميدة نفسها في إقناعها بخطبتها لعباس الحلو وهو- على عدم اقتناعها به- زينة شباب الزقاق، وربما يصدقها زمانها ، وتتحقق حظوظها في الحياة معه ، لكن بشرط أن تكون خارج الزقاق !.

ولذلك عندما لاحت لها فرصة جديدة من وجهة نظرها أفضل من عباس الحلو خطيبها ، فرصة تتوافق مع طموحها وتغريها بتحقيق الآمال العراض ؛ المال والجاه والرفاهية ، وفي إحدى البنايات الكبيرة خارج الزقاق ، حيث فاجأتها أمها الخاطبة يوما بما دار بينها وبين التاجر الموثر سليم علوان صاحب الوكالة والمكانة في الزقاق فباغتتها وهي تركز في عينيها[٢] :

- مولودة في ليلة القدر والحسين !.

فأمسكت حميدة عن تمشيط شعرها الأسود اللامع ، وسألتها ضاحكة :

- لمه؟. ماذا وراءك؟. هل من جديد ؟!.

فخلعت المرأة ملاءتها وطرحتها على الكنبة ، ثم قالت بهدوء وهي تتفرس وجهها لتمتحن أثر كلامها فيه .

- عروس جديد!

فلاح في العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطهما دهشة ، وتساءلت الفتاة :

- أتقولين حقا ؟

- عروس كبير المقام ، يتمنع عن الأحلام يا بنت الكلب ..

---

[١]) زقاق المدق ص :٨٣ .

[٢]) زقاق المدق ص : ١٣٨

فخفق قلب حميدة بقوة ، وتألقت عيناها حتى بدا حورهما ساطعا وتساءلت:

- من عساه يكون ؟

- خمني ؟!

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون :

- من ؟

فقالت أم حميدة وهي تهز رأسها وترعش حاجبها :

- السيد سليم علوان على " سن ورمح"!

فشدت قبضتها على المشط حتى كادت تنفذ أسنانه في راحتها ، وهتفت :

- سليم علوان صاحب الوكالة ؟!

- صاحب الوكالة ، وصاحب الأموال التي لا يفنيها المحيط !

فأضاء وجه الفتاة نورا ، وغمغمت لا تدري من الدهشة والسرور :

- يا خبر أسود !

- يا خبر أبيض ، يا خبر مثل اللبن والقشدة . لم أكن لأصدق لولا أنه حادثني بنفسه .

غرزت الفتاة المشط في شعرها، وهرعت إلى أمها وارتمت إلى جانبها، وسألتها وهي تشد على كتفها :

- ماذا قال لك ؟ خبريني بكل ما قال . كلمة كلمة ".

وهنا يدور حوار طويل بين حميدة العروس والأم الخاطبة والتي تظهر تمنعا مصطنعا ومغريا في الوقت نفسه لابنتها بالموافقة عبر إثارة عنادها الذي تعرفه، وإن كانت تشاغبها بعدم الرضا خوفا من كلام الناس في الزقاق ، والفاتحة التي لا يمكنهما الفكاك منها، والتمترس – إعلاء لعادات وتقاليد

الزقاق – خلف استشارة رجال الزقاق كالسيد رضوان الحسيني الذي تعتبره أمها رجل الأسرة !! ، وبعد شد وجذب ومناورات ومداورات بين الأم والخاطبة:

" فصاحت الفتاة بحدة وقد أنذرت حالتها بشَرٍّ مستطير :

– هو فاضل أن أردت ، وولى من أولياء الله إن شئت ، ونبي أيضاً إن أحببت ، ولكنه لن يقف حجر عثرة في سبيل سعادتي ..

.....

– ولكنك مخطوبة ..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :

– إن الفتاة حرة حتى يُعقد عليها ، وليس بيننا وبينه إلا كلاما وصينية بسبوسة .

– والفاتحة ؟

– المسامح كريم ..

– الفاتحة ذنبها كبير ...

فصاحت باستهانة :

– بليها واشربي ماءها ..." [1]

لاحت في الأفق أما حميدة فرصة تحقق آمالها وتلبي طموحها لم يكن بوسعها أن تحلم بها وإن كانت أمنياتها كثيرا ما كانت ترسل ببصرها

---

[1] زقاق المدق ص ١٤٢ ، ١٤٣ . نلمح وراء كلمات " حميدة " شخصية نجيب محفوظ ، لأن " حميدة " الجاهلة بنت الزقاق لا تستطيع أن تدير حواراً على هذه الدرجة من الثقافة والفكر ، فهذه الجرأة لا يمكن أن تقدم عليها مثل هذه الفتاة ... المعروف أن البسطاء أكثر تشبثا بالدين والقرآن من غيرهم من المثقفين سيما في عقود الزواج !!.

هناك حيث يجلس على باب وكالته يختلس إليها النظر ، فتصل إليها سهام عينيه خلسة ، فتدركها خلف عبر فتحة النافذة دون أن يلحظ الآخرون ! انتهى الحوار بانتصار حميدة على معارضي مشروع خطبتها؛ السيد رضوان الحسيني ، ووالدتها التي تتصنع المعارضة حتى أن ابنتها فضحت نواياها :

– " تالله لقد فرحتِ بالعروس الجديد أضعاف سروري ، ولكنها المكابرة والمعاندة والرغبة في إغاظتي سامحك الله . فحدجتها أمها بنظرة عميقة ، وقالت بلهجة ذات معنى :

– إذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة ، فهو في الواقع إنما يتزوج من أهلها جميعا ، كالنيل إذا فاض أغرق البلاد . أفهمتِ؟.. أم تحسبين أن تزفي إلى قصرك الجديد وأبقى أنا هنا تحت رحمة الست سنية عفيفي وأمثالها من المحسنين ؟! .. .

قهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها ، وقالت بكبرياء مصطنع :

– تحت رحمة الست سنية عفيفي والست حميدة هانم .

– طبعا .. طبعا يا لقيطة الطوار ، يا بنت المجهول ..

فاسترسلت الفتاة في ضحكها وقالت :

– مجهول مجهول .. كم من أب معروف لا يساوي شيئا .." [1]

اتفقتا على إتمام الصفقة معا في الغد ، إلا أن القدر كان أسرع من مؤامراتهما، فصنع المفارقة ، وأفسد فرحتهما ، حيث أصيب السيد سليم علوان بذبحة صدرية بالأمس ، فوقع الخبر على بيت أم حميدة كالصاعقة!!.

فشلت مؤامرتهما ، وأفلتت فرصة الانعتاق من الزقاق ، فما يزال يمسك

---

[1]) زقاق المدق ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

بخناقها ، وكلما لاحت لها فرصة للهروب ، عاودها المطاردة والإيقاع بها في غلالاته السوداء !!

لكن هل ما حدث أقنعها بقبول قدَرها ؟! هل إفلات الفرصة أقنعتها بالرضاء بنصيبها في الإبقاء على عباس الحلو ؟ لا ، لم تكف عن مد عنقها خارج الزقاق والتطلع إلى حيث تلوح آمالها في الأفق القريب ، خارج هذا الزقاق .

الحظ مثلما غدر بها في المرة الفائتة ، واقتنص منها على غرة فرحتها التي لم تفتأ تعيشها، فربما قد يلعب هذه المرة لصالحها، ويأتي لها بمن تبحث عنه هذه المروءة حتى باحة الزقاق حيث يقيم أحد المرشحين حفلا انتخابيا في الزقاق ، فتعثر بما تتعلق به بين رواد هذا الحفل " أفندي وجيه ، وأين من زقاقها الأفندية ؟! "[١] .. ظل يرمقها ويتتبعها حتى وارتها حجرتها في المنزل القديم ، وخلف نافذتها المعهود المتهالكة ، تتلصص عليه وتحدث نفسها : " أفندي وجيه ما في ذلك شك ، وغير السابقين بلا جدال وقد أعجبته، وإلا ففيم هذا الاهتمام الشديد ؟! " [٢] .

أخذ يتردد على القهوة كل يوم بعد العصر، ويجلس قبالة شباكها على ذات الكرسي الذي كان يجلس عليه خطيبها عباس الحلو[٣] ، وكأن الكاتب كان يتنبأ بأن القادم سيحل محل عباس عند حميدة !!، يبذل من المال؛ اللغة التي تفهمها ويجيدها كل من في الزقاق حتى أسر ببذله كل من يتعامل معه،

---

[١]) زقاق المدق ص : ١٥٤

[٢]) زقاق المدق ص :١٥٥ .

[٣]) لعل في ذلك ما ينبئها بأنها ستستبدل بالزائر الجديد خطيبها القديم عباس الحلو .

فلم يبحثوا عن هدفه الحقيقي من وجوده هنا !! وأقنعها هي ذاتها به " ... وأغرتها وجاهته ، وأيقظتها فحولته وجماله ، جذبتها نحوه قوة خفية من غرائزها المطمورة ، ووجدت فيه ما لم تجتمع لسواه ممن عرفت من الرجال . القوة والمال والعراك ..."[١] .

ما بين الصدود منها والإقبال منه ، وبأساليب وحيل متعددة ، تحفظ لكل منهما تمنعه الكاذب !! وبينما الأمر كذلك بين الشد والجذب ، تذهب إليه متسلحة بدهائها ، وهو بثقته ، ومكره الذي كثيرا ما ينجح في الإيقاع بفرائسه ، فالتقيا في شارع الموسكي ، تعارفا :

– " ترى ما اسمُكِ ؟

فقالت بلا تردد :

– حميدة ...

فقال مبتسما :

– أما الذي سَحَرتِ لبَّه ففرج إبراهيم . في مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يُعرَف، وهو يُعرف عادة بعد أن يكون الشخصان قد أيقنا أنهما واحد، أليس كذلك يا ست الملاح ؟ "[٢].

نجح الصياد في صيد الفريسة ، التي أسكرها حديثه العذب ، جعلها وللمرة الأولى تتمنى : ليتها تتقن الكلام كما تتقن السب والعراك !! فبدأ يسري خدر كلامه في أركان نفسها المستنفرة دائما، فأدرك بفراسته أن الفريسة آخذة في السقوط والانقياد إلى حيث يريد الصياد !!

---

[١]) زقاق المدق ص: ١٥٧

[٢]) زقاق المدق ص : ١٨٣

سرقها فرج إبراهيم من نفسها حتى فاجأها انتهاء الشارع وهي تسير بلا إرادة ، سقطت كل الحصون التي كانت تحتمي بها!! فكان كمن ربط في رقبتها مقودا يجرها إلى حيث مورد الماء العذب على صدى نقيع !! .

حملها في تاكسي ليتمكنا من قضاء وقت معا دون استبطاء أو تغيب مريب ، فانتقلت في سرعة لم تدرك وقتها ، حيث يريد إلى شارع شريف معلنا أن بيته على بعد خطوات في إحدى العمارات الضخمة السامقة ذات المدخل الأوسع من الزقاق !! فتحطمت كل هذه الإغراءات ، والمقارنات بين بيت فرج وكل بيوت الزقاق ، كل أسلحتها التي عادة ما تستنفر في مثل تلك المواقف ، غامرت بنفسها لخوض هذه التجربة الجديدة ، واستقوت على ترددها بما لديها من أدوات المقاومة والاعتداء لو استدعى الأمر ، الذي حمله على يدرك أن " محبوبتي من النوع الخطر الذي يفرقع باللمس فيستوجب العناء الشديد والترويض الماهر، ثم قال لها برجاء ورِقَّةٍ :

– أرجو أن أقدم لك قدحا من الليمون .

رمته بنظرة قاسية متحدية ، ثم غمغمت :

– لك ما تشاء .."[١]

لقد بدأت حميدة أول رحلة السقوط عندما خطت أولى خطواتها الجادة نحو الإفلات من ربقة الزقاق، إلى العالم الجديد الذي تتغياه وتحلم به ، تتلقفها دوامات الصخب الهادرة ، وتجرفها الأبنية السامقة والمصابيح زاهية الضوء الملونة إلى مستنقع الحياة ، وليس إلى قمتها كما كانت تحلم أوتتخيل !! الإفلات من عبق الزقاق وترابه وغلالاته السوداء ليس معناه الانعتاق من

---

[١]) زقاق المدق ص : ١٨٧ .

أوبئته التي كانت تنفر منها، وتتقزز من روائحها ، لكن معناه شيء آخر ستغرق فيه من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها ، ولن تستطيع الفكاك منه أبدا على ما سترى !!.

انصاعت تماما لمقولاته ، دخلت معه بيته ، حيث عالمه الصاخب وضوضائه الماجنة ، لم تمانع في شيء مما يطلبه ، منحته بعضا من مقدمات ما يصبو إليه منها:" اقترب الرجل منها رويدا حتى لاصقها ، ثم أحاط خاصرتها بذراعه ، وهي مستسلمة ساكنة لا تدري متى يحق لها المقاومة ، ومد يسراه إلى ذقنها فرفع ثغرها إليه وهوى بفمه متمهلا كأنه ظمآن يكرع من جدول حتى التقت الشفتان وطال التقاؤهما كأنما أخذتهما سنة من الغرام" [١] .

لقد وضعت حميدة قدمها على أول طريق السقوط مع هذا الرجل ؛ فرج إبراهيم ، القواد ، راح يؤسس لبناء حلمها الشاهق ، وإن كان بناؤه على شفا جُرُفٍ هَارٍ. إلا أن طموحها وتطلعها وأحلامها دفعها للتصديق والتغلب على ترددها، بتصنع الاستغراب وعدم الثقة بما يعد، لكن سرعان ما ذهب لا تلوي على شيء وغلبتها شهوة الثراء والبيوت الشاهقة والأنوار الساطعة وعالم الضجيج والصخب ، وحياة الضوضاء التي تختلف عن سكون وهدوء الزقاق الذي يصل إلى حد الموات إلا من أصوات الشجار، التي تدور بينها وبين جيرانها من سكان الزقاق أو نواح الندابات على موت كبير من عواجيز الزقاق !!.

خرجت من الزقاق هذه المرة وهي مقتنعة بما قررته أنها المرة الأخيرة

---

[١]) زقاق المدق ، ص :١٨٩ .

فلن تعود إليه ثانية ، وجدته بانتظارها حملها في التاكسي للمرة الثانية ، أغراها بالحب والوعود التي أغرتها بالاقتناع والتحليق في عالم الرضا والسعادة في مدرسة القوادة التي يديرها الناظر الماهر فرج إبراهيم!! وستكون (تيتي)[١] أهم تلميذاته بين رواد المدرسة .

انتهت حياتها من الزقاق بتبدل(تيتي) بـ (حميدة) حيث عالم الصخب والحرية والأحلام في مدرسة فرج إبراهيم !! هذا الاسم الذي يسهل نطقه على الألسنة المعوجة لرواد مدرسته من الإنجليز والأمريكان والتي ذهب متأبطا ذراعها بعد انقضاء أول ليلة في عشه الجميل الذي ربما فاق أحلامها ليريها فصول مدرسته التي يتعلمن فيها الرقص الشرقي، والغربي، ومبادئ اللغة الإنجليزية ، وصويحباته ممن يشغلن مقاعد أخرى في هذه الدار!.

أنست (تيتي) حياتها الجديدة سيما بعد أن رأت كيف تبدل حالها، استسلمت لكل مغرياتها وحققت كثيرا مما كانت تهفو إليه نفسها ، ولا يهم الطريق الذي تحققت به كل هذه الأحلام ، أتقنت أدوات العالم الجديد فأحرزت مهارة فائقة كان من نتائجها: " لم يكن النجاح الذي جاءها يجر أذياله بمستغرب ، فتهافت عليها الجنود ، وتساقطت عليها أوراق النقود ، وانتظمت في سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظير . وبدا لها أنها فازت بكل شيء وأنها لم تخسر شيئا " [٢] .

انفلات حميدة من عالم الزقاق، وانفصامها من عرى الحياة القائمة على مسرحه أردتها في هوة السقوط حتى ولو ساقت كل مبررات الدنيا لإقناعها

---

[١]) حميدة سابقا .

[٢]) زقاق المدق ص : ٢٥٤ .

باختيارها الجديد " إنها لكي تتمرغ في التبر ينبغي أن تتمرغ في التراب!!."[١]

فالمكان كان عصمة لها ، كان حياة الشرف والعفة والنقاء، هذه الأشياء التي لم تكن تعرف معناها، ولم تختبر ذائقتها طعمها لأنها ببساطة لا تباع ولا تشترى !! لم تعرف معناها إلا بعد أن ابتذلتها أطماعها ، وجريها وراء السراب ، المنغمس في عهن الفجور الذي تعرمت به آبار العهر الآسنة ، ولم تدرك تلك الحقيقة إلا بعد أن سقطت كل الأقنعة ، وتبخرت كل الوعود وانهارت كل الأحلام ؛ ضاعت وضاع منها كل شيء كانت تطمح إليه نفسها الأمارة الساخطة !!. فلم تجد سلوى في غير استرجاع عاداتها القديمة تخرج في كل عصر تستقل عربة حانطور وتتجول في الشوارع التي كانت تهفو إليها نفسها عندما كانت تقيم على مضض في الزقاق، أصبح الزقاق أملا ليس باستطاعتها أن تباشر ترابه إلا من بعيد أصبح رمزا للطهر والعفاف والحب الطاهر البرئ وليس حب فرج الذي لم يُفْضِ بها إلى غير فراش " الضابط الإنجليزي الذي يدفع خمسين جنيها عن طيب خاطر ثمنا لعذراء!".[٢]

هذا هو السقوط الذي مُنِّيت به (حميدة) لخروجها من الزقاق ، فالمكان كان مهاد الحياة المستقرة ، والحب الطاهر ، والزواج والاستقرار، والأسرة والبيت ، وكل ما تحلم به كل فتاة عاقلة مدركة لما كان عليه واقع الحياة ، فالتشبث بالمكان العريق والأصيل (الوطن) وقتئذ ، الذي كان يعاني من الاستعمار، وأبناؤه يعانون من دفعهم لحروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل!! بددت إفرازاتها المادية كل أحلامهم في الحب والاستقرار. ومن ثم، كان الزقاق

---

[١]) السابق ص : ٢٥٤ .

[٢]) السابق ص : ٢٢١

– لو أقررنا بأنه كان يرمز للوطن أيا كان ؛ الزقاق ، الحارة ، الشارع ، القاهرة ، مصر– رمزا لكل هذه المعاني والقيم الخالدة ، التي تحمي وجود أبنائه ، وتحفظهم من التبدد والتهافت ، وترقى بهم حيث استقامة الحياة. لكن الأماكن التي غزتها عادات وتقاليد مستوردة، وانخدعت ببهرجها الزائف وألوانها الزاعقة الصاخبة ، كانت أماكن خادعة ، لم تضمن للفارين إليها حياة ولا وجودا ، ولا حتى امتدادا في هذا العالم !!. ولعل في سقوط حميدة ما يشي بكل ذلك .

أما (عباس الحلو) والذي ترك الزقاق تحت وطأة طموح حبيبته(حميدة) التي رضيت به خطيبا لأجل ، تجربة ، عساه ينجح في تحقيق طموحها في مغادرة الزقاق !! سافر الرجل وعمل في معسكرات الإنجليز ، وجمع ما تحصل عليه من مال حرم نفسه من أكثره !! ، وعاد حاملا (شَبْكَة حميدة) لكنه لم يجدها !! سأل عنها كل سكان الزقاق فكان جوابهم :" ليست موجودة ! لم تعد هنا اختفت .لا يدري أحد عنها شيئا " [١] .

ظل يبحث عنها هنا وهناك ، وهو يلوك ألما فظا ، ومقتا نهما، وخيبة أمل كثيرا ما كانت تلوح له في الأفق ويكذب نفسه ولا يصدقها " شعوره بالخيبة – الناشئة عن ذهاب الأمل وتمرغ المعبود في التراب – كان أقسى من الغيرة نفسها "[٢] . حتى هم أن يغادر الزقاق ومصر ، ويتجنس بالجنسية الإنجليزية عسى أن ترحمه غربته ويبرأ من هوى حميدة وينسى كأس المر الذي جرعته إياه وما تزال!! ، سواء في الحضور أو الغياب ، وإذ هذه حاله

---

[١]) زقاق المدق ص :٢٣١ .

[٢]) السابق ص : ٢٣٦ .

يعثر بحميدة في إحدى رحلات التنزه كعادتها كل عصر فيما بين الموسكي والسكة الجديدة والصنادقية والمدق فيناديها ، ويجري خلف عربة الحانطور التي تقلها، وهي دون أن تدري تهتف :

– عباس !!

كانت هنا نقطة الالتقاء التي عانى كثيرا حتى تحققت ؛ أفضيا بما عركتهما به الحياة، أكلت الحيرة قلبه ، واستثارت كل هواجسه ، تزاحمت كل مقولات الناس سواء بالتصريح أو التلميح ، الشائعات تكاد تُذهِب عقله، وتقتل مشاعره نحوها ، كانت رأسه كرحى تصطك أحجارها لتطحن ما تدفع به من أفكار :

" فقال الحلو بصوت مبحوح متهدج :

– حميدة ! . أهذا أنتِ؟! رباه كيف أصدق عيني ؟! كيف هجرتِ بيتكِ وأمك وانقلبت إلى هذه الحال ؟!.

وأجابته في ارتباك غير خاف :

– لا تسألني عن شيء فليس عندي ما أقوله ، وهذا قضاء الله [1] الذي لا يرد .

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر . فاستفزا غضبه وأثارا حنقه ، فعلا صوته مزمجرا حتى ملأ الحانوت :

---

[1]) للمرة الأولى تذكر حميدة (الله) سبحانه (جل وعلا) ، فكل ما كانت تفعله كان بإرادتها هي ، لم تقدم المشيئة مرة ، ولم تتذكر أن ما حدث من قدر الله أو قضائه سبحانه وتعالى !! وهذا شأن أكثر البشر أنهم لا يتذكرون الله إلا في حالات ضعفهم ، أو إذا أخفقوا فيما يقررون من مصيرهم .

– كاذبة فاجرة .. أغواك فاجر مثلك ففررت معه . وتركت وراءك في حيَّك أسوأ الذكرى ، وها هو الفجر السافر يطالعني في وجهك وتبرجك الفاضح..

استفزها حديثه كذلك وثارا معا، كل في وجه الآخر ولم يجدا بدا من الإقرار بالواقع بعد هدأت ثورة العتاب بينهما ، وأقرا بأن فرج القواد هو السبب فيما آل إليه حالهما ، ففكرا في تدبر أمر الخلاص منه ، بوصفه الحل لمشكلتهما كما كان هو السبب في وجودها !! فهل سينجحان؟ هذا ما سنراه في هذا المشهد الذي يكتب نهاية عباس الحلو ، وكأن الزقاق يخرج لهما لسانه سخرية وانتقاما !!.

وعدها بأن سيحطم رأسه الوضيع ، وأبدت هي خوفا من رغبته الانتقام ربما تذهب به إلى السجن ، وإن كانت موقنة من ضعفه القديم ، الذي قد لا يدفعه لارتكاب مثل هذا الفعل ولما أعياها إقناعه قالت : " لك ما تشاء يا عباس .." [١]

يهرع عباس إلى صديقه (حسين كرشة) أحد شباب الزقاق ، وهو الذي أغراه بالتمرد على الزقاق واللحاق بركب الثراء السريع خارج هذا الزقاق ، حيث معسكرات الإنجليز(الأورنس) . أطلعه على سره مع (حميدة) ، وأنه يطلب معونته في الانتقام من القواد الذي أفسد عليه حبيبته ، وآذى كل شباب الزقاق في عرضهم عندما تعدى على إحدى بناتهم ؛ ذلك الشيطان الرجيم الذي أغراها بتفاحة الحب فخرجت من الجنة (الزقاق) إلى مستنقع الرذيلة والسقوط !!. طاوعه حسين وكأنه يعوض فشله وخيباته في الحياة، وسار معه على مضض باتجاه الحانة التي سينفذان بها خطتهما مخاطبا

---

[١]) زقاق المدق ص :٢٦٩ .

إياه:

- وأين الحانة ؟

فأومأ له إلى باب غير بعيد وهو يغمغم : هاهي ذي ، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينيه الصغيرتين الحادتين ، ونظر عباس الحلو إلى داخل الحانة وهما يمران بها فجذب عينيه منظر غريب . ندت عنه شهقة ، وتصلبت عضلات وجهه ، ثم جرت الحوادث سريعة قبل أن يفقه لها حسين كرشة معنى . رأى حميدة في جلسة شاذة بين نفر من الجنود ، كانت تجلس على كرسي وإلى ورائها جندي واقفا يسقيها خمرا من كأس في يده ، ينحني عليها قليلا وتميل هي برأسها إليه وقد مدت ساقيها على حِجر آخر يجلس قبالتها ، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون ، بهت الفتى وتسمر في موقفه ونسي ما كان علمه من مهنتها ، وكأن الخطب يدهمه على غير علم به ، وطمس الدم الفائر بصيرته فلم يعد يعرف غريما في دنياه سواها، واندفع إلى الحانة كالمجنون وصاح بصوت كالرعد :

- حميدة..

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسي ، وحملقت في وجهه بعينيين ملتهبتين وغلبتها الدهشة لثوان ، ثم ثَابت إلى رشدها وقد هالها ما يتهددها به حمقه من الفضيحة ، فصاحت به بصوت خشن فظ جعله الغضب كالزئير:

- لا تبق هنا لحظة واحدة .. اغرب عن وجهي ..

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فجن جنونه ، واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد ، ووجد أخيرا ماعاناه في الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثقبا في مرجل نفسه ، فانطلق منه صارخا ، مصفرا مجنونا ، ولمح يساره بعض زجاجات الجعة الفارغة على

طاولة الحانة ، فتناول واحدة وهو لا يدري ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط ، في سرعة خاطفة ، لم يستطع أن يمنعها أحد ، لا من الجنود ولا من عمال الحانة ، فأصابت الزجاجة وجهها ، وتفجر الدم غزيرا من أنفها وفمها وذقنها ، وامتزج بالأدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها، واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين ، وانقض عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر ، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات .. ووقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعا ، وكلما تلقى ضربة هتف صارخا يا حسين .. يا حسين ، ولكن الفتى الذي لم ينكص عن خوض معركة في حياته لبث متسمرا لا يدري كيف يشق سبيله إلى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين ، وتملكه الغضب ، واشتعلت بصدره ثورة جائحة ، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة عله يجد آلة حادة أو عصا أو سكينا، وبقي مقهورا مغلوبا على أمره وقد مضى السابلة يتجمعون عند مدخل الحانة متطلعين للمعركة بأعين فزعة وأيد مغلولة.."[١]

أسفرت هذه المعركة عن قتل عباس الحلو، قتله الإنجليز!! وحملت الشرطة جثته إلى القصر العيني، ونقلوا العاهرة إلى الإسعاف [٢].

لم يسلم كل من تمردوا على حياة الزقاق من السقوط سواء القتل على يد الإنجليز أو السقوط في مستنقع الرذيلة ، والذي وطأة عاره على أبناء البلد

---

[١]) زقاق المدق ص : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

[٢] السابق ، ص : ٢٨٥ ،

أشد من القتل نفسه . حتى(حسين كرشة) صديق (عباس الحلو) الذي سبقهم جميعا في التمرد على حياة الزقاق ، والاندفاع كما (حميدة) إلى عالم المال والثراء ولو كان من العمل في (الأورنس) مع المحتل ، ذهب وأسال لعاب غيره من الشباب كعباس وحميدة للتمرد على الزقاق ، فعمل وتزوج وكون أسرة لكن سرعان ما لفظه الضابط الإنجليزي ورفته من عمله، فعاد للزقاق يجر أذيال الخيبة والخسران ممثلا سقوطا اجتماعيا واقتصاديا أخر جعله معرة شباب الزقاق في نظر أبيه (المعلم كرشة) الذي كان يريده مديرا لقهوته وسائر أعماله في الزقاق ، فجلس يقتات خيبته حتى أنه لم يجد من الخلاص من هذا الزقاق النحس إلا بإشعال النار فيه ، يقول حسين كرشة في حواره مع صديقه قبل أن يذهبا إلى حتفه :

- هجرت المدق فأعادني الشيطان إليه ، سأضرم به النار، هذه خير وسيلة للتحرر منه .

فقال عباس بأسى :

- زقاقنا لطيف، وما طمعت يوما في أكثر من حياة طيبة فيه ..
- إنك خروف ! وحلال أن تنحر في عيد الأضحى. علام تبكي ؟ إنك عامل وفي جيبك نقود ، ولتجمعن غدا بتقتيرك مالا وفيرا . فماذا تشكو ؟

فقال عباس بلهجة تشف عن الاستياء :

- إنك أكثر مني شكوى ، وعمرك ما حمدت الله .

فحدجه الشاب بنظرة قاسية أثابته إلى رشده وجعلته يستدرك قائلا بلين:

- لا عليك من هذا ، لكم دينكم ولي دين ..
- فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة ، وقال وقد أخذت الخمرة تلعب برأسه :

- **خير لي أن أشتغل خمارا من أن أشتغل مكان أبي في القهوة ، الربح هنا موفور، وفضلا عن هذا فالخمر مبذولة للخمر مبذولة للخمار بغير حساب .."[١]**

لعل نجيب محفوظ الذي انغمس في الواقعية وهو يكتب ملحمته الروائية (زقاق المدق)، جعل قوة الدفع للخط الدرامي في الزقاق لنمو الأحداث والشخصيات يكمن في مشكلة الفقر في الزقاق . فالفقر،هو الذي دفع حسين كرشة للتمرد على الزقاق وتطلع للحياة النابضة خارجه حيث العمل في معسكرات الإنجليز سيوفر له المال، الذي سيحقق له إدراك كل ملذاته !! وهو الذي يدفع (عباس الحلو) للخروج على سطوة الزقاق تحت وطأة ضغوط مطالب حبيته (حميدة) من توفير تكاليف الخطبة والزواج والسكن خارج الزقاق فوق رأس كل المطالب !، كما دفع أجمل بنات الزقاق (حميدة) نفسها إلى التمرد على الزقاق ، الذي كانت تراه (زقاق العدم) ، ودفعها كذلك إلى تَرْكِ خطيبها (عباس الحلو) الذي يظنها تحبه إلى الانعطاف نحو شخص آخر(سليم علوان) ؛ صاحب الوكالة وثري الزقاق، الذي لا يتمتع بأية صفة ترغبها فيه غير المال !! ولما لم تفلح وتفشل مؤامرتها، ألقت بنفسها في شباك أول صياد في بحر الأحلام القواد فرج إبراهيم الذي نصب له فخاخه ، وعرف كيف يغريها بتحقيق آمالها غير الممكنة ، فأوغلت في عالم الخطيئة والسقوط حتى أصبحت مطية لكل راغب ، يدفع ثمن رغيبته لسايس اسطبل الرذيلة ..! كل هؤلاء أسقطهم الفقر في وهدته ، وجرعهم

---

[١]) زقاق المدق ص : ٢٥١ ، ٢٥٢ .

كؤوس الفشل والدمار والسقوط ، فالفقر هو العدو اللدود للإنسانية ، وفى القضاء عليه قضاء على كل الرذائل كما كانت تزعم الشيوعية قبلا ، وجاء انهيارها فضيحة لكل ما تعتنق .

الفقر كان دافع الجميع ؛ إما للارتكاس في عالم الزقاق والرضا بالمقسوم من حظوظ الدنيا ، وإما للتمرد والطموح في الإفلات من قبضته!. والذي كانت الأقدار تكتب لهم مصائر أخرى نجا منها أكثر من رضوا بحياتهم واستأنسوا القناعة في عالم الزقاق . وهذه رؤيا قد نتفق أو نختلف في قبولها .لكنها حتما ستفتح الباب لقراءة أخرى في قادم الأيام " فالابتكارات الروائية – كما يقول الناقد ياسين النصير– تخلق ابتكارات نقدية ، حيث تولد الطريقة الفنية وكيفية التفكير بمنهجيتها النقدية ورؤيتها الخاصة ، وإن كان النقد هو الذي يؤثر بالكاتب وهو الذي ينبه المبدعين منهم إلى ما هو جذري في فنهم وهو الذي يحدث التفاعل الإيجابي أو السلبي عند الكاتب " [١].

[١]) الرواية والمكان ص : ٢/ ١٤ .

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ؛ سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اهتدى
بهداه (ﷺ) .

وبعد ،

فلقد تتبعت الدراسة عبر تماسها مع الفضاء الروائي بمفرداته / عناصره الإبداعية ، وتقنياته الفنية ، حركة الحياة وسيرورتها في فضاء الزقاق ، بوصفه البطل الحقيقي في رواية زقاق المدق ، والذي نجح كاتبها نجيب محفوظ في بلورة أزمة الإنسان المصري في حقبة الحرب العالمية الثانية ، وانعكاساتها على المجتمع المصري . فالزقاق كان رقعة يعيش على مسرحها المجتمع المصري بشتى شرائحه الإنسانية ، وتتمثل عبر دراما واقعه ، كل أنماط البشر، وإن كانوا يعيشون في أماكن مختلفة في فضائه الإبداعي .

تماست الدراسة مع شخصيات الرواية المتعددة في أماكنهم المختلفة في فضائها الفسيح حيث تنصهر كل هذه الأنماط البشرية المختلفة ويعيد المكان تشكيلها وفق طبيعة دور كل منهم ، فتتشكل البيئة العامة التي تتحرك عبردهاليزها هذه الشخوص لتشكل هذا المشهد البانورامي في عالم الرواية في تشكيله الدائري شبه المحكم الذي كان مصير الانفلات منه هو الفشل أوالسقوط أو الموت .

تبلورت عبر عملية التحليل الفني بعض الأفكار التي يمكن أن نعدها نتائج عنت للباحث في دراسته ، من أهمها :

١) يحتل الفضاء الروائي البطولة في رواية الزقاق عبر سطوته وحضوره الإبداعي ، إذ يمثل عامل الدفع والتطور في بناء العمل الروائي .

٢) شخوص زقاق المدق يمثلون جزءا من المجتمع المصري ، ومثلا يصلح أن يكون رمزا له . فهو العنصر المشترك الذي يعيش على رقعته المجتمع بكل شخوصه .

٣) الزقاق هو المعادل الجغرافي للقاهرة / مصر قبيل وأثناء الحرب العالمية الثانية ، وتحت وطأة المستعمر الإنجليزي ، ومنثم ، كان التمسك بالزقاق يرمز إلى التمسك بالوطن ، بالأصالة ، بقيم المجتمع. وعدم الانخداع بإفرازات الحضارة الغالبة ، فليس كل ما يلمع ذهبا!!.

٤) التمرد ليس دائما ما يكون معناه التحررأو الانعتاق من أزمات الواقع ، وليس التمرد عليه دائما ما يحقق آمال الإنسان في النجاح أو الاستقرار، فكثيرا ما يخدعك السراب في وقت الظهيرة عندما تكون في الصحراء !!

٥) باستطاعة المكان أن يلعب دورا مهما في تشكيل وبلورة نفسيات كل الشخوص على تعددهم ، إذ البيئة المكانية تعد الحاضنة الرؤوم للأنماط البشرية المختلفة .

٦) نجح نجيب محفوظ في أن يجسد الصراع الحقيقي بين بعض الشخصيات المتقابلة وتحديد هوياتهم المختلفة كعباس الحلو وحميدة من جهة ، وعباس الحلو وحسين كرشة من جهة ثانية ، وفرج القواد وحميدة من جهة ثالثة . والسيد رضوان الحسيني وأكثر شخصيات الزقاق من جهة رابعة ، وهكذا . حيث العجز المادي كان يشل حركة معظم شباب الزقاق ، والتناقضات البشرية تحفر أخاديدها بقوة في نفوس أكثر سكانه حيوية وحركة .

٧) تعد رواية زقاق المدق علامة فارقة في رحلة نجيب محفوظ الإبداعية ،

إذ استطاع في هذه الرواية أن يبلور العلاقة بين عالم الإنسان الداخلي والعالم الخارجي في رحلة الخلاص من أزماته النفسية والاجتماعية والحضارية في هذا العالم .

تلك كانت بعض الأفكار التي خلصت إليها الدراسة ولابد هناك بعض أفكار أخرى تتجلى عبر التحليل الفني الذي مارسته عبر رحلة الإبحار في الفضاء الروائي لا تغيب عن فطنة القارئ .. آمل أن تهيأ الأسباب لمناقشتها في دراسات أخرى حول هذه الرواية الحبلى بالأسرار الفنية والدلالات الجمالية عبر رحلة التلقي والنقد .

أسال الله تعالى أن أكون قد وفقت في الكشف عن جانب فني جمالي إنساني في هذه الرواية ، وأن تكون دراستي قد نجحت في أن تشرع بابا جديدا للتماس مع روايات الأديب نجيب محفوظ (يرحمه الله) ، برؤية جديدة ومختلفة عن سابقاتها . وأن تكون هذه الجهود في موازين حسناتنا وأساتذتنا من أصحاب الفضل علينا .. إنه سبحانه وتعالى ولي ذلك والقادر عليه . آمين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

****

المصادر والمراجع

١) امتزاج الشخصية في المكان في أدب نجيب محفوظ : زقاق المدق أنموذجا (مقال) للناقدة مريم الشنقيطي – جريد الجزيرة عدد (١٤٩٩٦) في : ١٤ من ذي الحجة ١٤٣٤هـ / ١٩ أكتوبر ٢٠١٣م – المملكة العربية السعودية .

٢) استراتيجية المكان : دراسة في جماليات المكان في السرد العربي – د. مصطفى الضبع – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ثانية – ٢٠١٨م – القاهرة .

٣) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. د. حميد لحمداني – المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع – أولى – ١٩٩١م – بيروت / المغرب .

٤) التشكيل السردي : المصطلح والإجراء . د. محمد صابر عبيد – دار نينوى – ٢٠١١م – سورية .

٥) تلمسات نظرية في المكان وأهميته في العمل الروائي (بحث) – د. سليم بتقه – مجلة المَخبَر – العدد – (٦) – السنة (٢٠١٠ م) – كلية الآداب واللغات / جامعة محمد خيضر – بسكرة – الجزائر .

٦) جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر – د. عبد الله أبوهيف – مجلة جامعة تشرين – الآداب والعلوم الإنسانية – مجلد (٢٧) العدد (١) – ٢٠٠٥م – سوريا .

٧) جماليات المكان – غاستون باشلار – ترجمة : غالب هلسا – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – الثانية – ١٩٨٤م – بيروت .

٨) الرؤية والأداة : نجيب محفوظ – د. عبد المحسن طه بدر – دار المعارف

– ثالثة – دت – القاهرة .
٩) الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ . سليمان الشطي– الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٤م – القاهرة .
١٠) الرواية العربية : البناء والرؤيا . د. سمر روحي الفيصل – منشورات اتحاد الكتاب العرب – ٢٠٠٣م – دمشق .
١١) الرواية العربية .. واقع وآفاق – مجموعة من المؤلفين ، والكلام للروائي غالب هلسا – دار ابن رشد للطباعة والنشر – أولى – ١٩٨١م – بيروت .
١٢) الرواية والمكان ص: ١٨ ياسين النصير – دار الشئون الثقافية العامة – الموسوعة الصغيرة – عدد (١٩٥ / ٢) وزارة الثقافة والإعلام – العراق .
١٣) زقاق المدق (الرواية) نجيب محفوظ – دار مصر للطباعة – دت – القاهرة.
١٤) زقاق المدق (مقال) – توفيق حنا – منشور ضمن كتاب الرجل والقمة : بحوث ودراسات (جزء أول) – تصنيف: فاضل الأسود – الهيئة المصرية العامة للكتاب –١٩٨٩م – القاهرة .
١٥) زقاق المدق : الحب بطل كل الأشياء (مقال) للباحث محمود الصباغ. منشور في مجلة : الحوار المتمدن (الإليكترونية) محور : الأدب والفن – العدد (٥٩٩٦) – بتاريخ : ١٨/ ٩/ ٢٠١٨م
١٦) الشخصية وأثرها في البناء الفني لروايات نجيب محفوظ ص: ٣٢٦ ،٣٢٧ ز بتصرف – د. نصر محمد إبراهيم عباس مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع – أولى –١٩٨٤م – المملكة العربية السعودية .
١٧) صورة المرأة في الرواية المعاصرة . د. طه وادي – مركز كتب الشرق الأوسط –د ت – القاهرة .
١٨) قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ ٠ د . نبيل راغب – الهيئة

المصرية العامة للكتاب – ثالثة – ١٩٨٨ م – القاهرة .

١٩) مصر المكان : دراسات في القصة والرواية – الأستاذ . محمد جبريل – الهيئة العامة لقصور الثقافة –كتابات نقدية / عدد (٧١) – فبراير ١٩٩٨م – القاهرة .

٢٠) مصطلحات نقد الرواية ص" ١١٤:١١١ د سمر روحي الفيصل– معجم نقدي منشور في زاوية (دائرة المعارف) في مجلة الفيصل – العدد (٢٢٨) – جمادى الآخرة ١٤١٦هـ / اكتوبر – نوفمبر ١٩٩٥م . المملكة العربية السعودية .

٢١) المعجم الفلسفي . – إعداد مجمع اللغة العربية – الهيئة العالمة للمطابع الأميرية – ١٩٨٣م – القاهرة .

٢٢) المعجم الكبير – مجمع اللغة العربية / إعداد الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث – أولى – ٢٠٠٤م – القاهرة .

٢١) المنتمي : دراسة في أدب نجيب محفوظ – د . غالي شكري – مطابع الأخبار – الرابعة – القاهرة .

٢٣) نجيب محفوظ الحاضر بخرائطه مقال للناقد شريف الشافعي – منشور في بوابة الأهرام الإليكترونية (المقهى الثقافي) الثلاثاء ٢٠١٩/١٢/١٧م – القاهرة ..

٢٤) نجيب محفوظ : الطريق والصدى – د . علي شلش – الهيئة العامة لقصور الثقافة – كتاب الثقافة الجديدة – ديسمبر / ١٩٩٣م – القاهرة .

٢٥) نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية – د . فاطمة موسى – الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) – ١٩٩٩م – القاهرة .